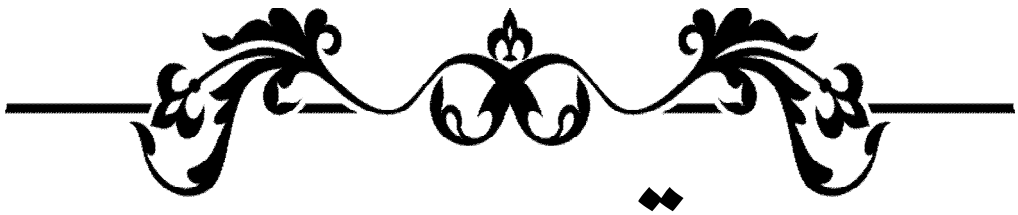

قسم

البلاغة والنقد

من أسرار التعبير القرآني
دراسة بلاغية لسورة محمد

(صلى الله عليه وسلم)

إعداد الدكتور

أحمد منصور خلف اللّه

أستاذ البلاغة والنقد وعميد الكلية

بجامعة الأزهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله النبي الأمين، عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد...

فقد روى عبد الله بن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عن النبي (ﷺ) قال: " إنَّ هذا القرآنَ مَأْدُبةُ اللهِ فاقْبَلُوا مأدُبَتَه مَا اسْتَطَعْتُمْ، إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَهُوَ الْبَدْرُ السَّاطِعُ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ،ولا يخلقُ مِنْ كَثْرةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلاوَتِهِ كلّ حرف عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أما إنِّي لا أَقُولُ: " الم " حرفٌ وَلَكِنِ اَلِفُ حرفٌ ولامٌ حَرْفٌ وميمٌ حرفٌ ".(حديث صحيح)[1].

ومن ثَمَّ حشد علماء المسلمين طاقتهم من أجل دراسة هذا الكتاب الكريم، وتَدَبُّرِه، واستخراج معانيه، والبحث في أسراره، وصبروا في ذلك كله ما لم يصبروا على غيره.

لقد بذل العلماء الجهد في دراسة القرآن؛ لأن ما فيه هو دين الله

(١) قد أورده العلامة الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٦٧) وقال في الحاشية تعليقا على كلام المنذري عند قوله رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر بن إبراهيم عن أبي الأحوص عنه. وقال: تفرد به صالح بن عمر عنه، وهو صحيح".

وحلالُه وحرامُه، وبيانه وتجليته تكليف لا مفرَّ من إحكامه، والالتزام به، والتقصير في هذا مهلكة لا يدفعها دافع.

ولهذا ترى أفضل المناهج وأصحَّها ما كان من العلوم المتصلة بالقرآن الكريم، حيث سيطرت الروح الحَذِرة على أصحاب هذه المناهج خشية الوقوع في المحظور، فضلا عما كان من مراجعة من العلماء لأصول تلك العلوم وفروعها، وتدقيق في المراجعات، فكثرت التعليقات والاستدراكات والشروح.

وحال البلاغي الذي يتعاطَى النَّصَّ القرآنيَّ ويتناولُهُ حالُ بقية العلماء من حذر وتدقيق، وموقفه أمام القرآن وصوره، وإن شابه موقفه أمام ألفاظ الشعر وتراكيبه وصوره، إلا أنَّ ثمة اختلافا لا يجوز إهماله، لأنه مع القرآن يستنبط شرعًا وأحكامًا وأسرارًا وإعجازًا، ومع الشعر يستنبط صنعة فقط، ومن ثمَّ كان الحذر والتدقيق.

وقد حاولتُ في حذرٍ ووجلٍ استجلاء سرّ من أسرار التعبير القرآني في سورة محمد (ﷺ) في هذا البحث، معتنيا بربط الآيات وبيان الغريب، وذكر ما خفي إعرابه، وبيان الأسرار البلاغية ودورها في التعبير القرآني من خلال بيان المعنى العام.

أسأل الله – عزَّ وجلَّ – أن يوفقني في هذا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

دكتور/ أحمد منصور خلف الله

سورة محمد (ﷺ)

وتسمي سورة القتال، وهي مكية عند مجاهد ومدنية عند الضحاك وسعيد ابن جبير.

مناسبتها لما قبلها:

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة – أعني سورة الأحقاف – فإن آخرها قوله تعالى: **(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)**، فإن قال قائل: كيف الفاسق؟! وله أعمال صالحة، كإطعام الطعام وصلة الأرحام، وغير ذلك من أعمال برٍّ صالحة والله لا يضيع لعامل عمله وإن كان قليلاً حيث قال: **(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)** فأخبر الله – عز وجل – في هذه السورة بأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فأضل الله أعمالهم، لأنها لم تكن لله ولا بأمره وإنما فعلوها من عند أنفسهم، ولهذا السبب أبطلها الله تعالى.

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: **(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)**.

معاني الكلمات:

(وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ) إن كان الفعل "صد" من اللازم وهو " صدَّ صُدُودًا " فمعناه: أعرضوا عن الإسلام وصدُّوا أنفسهم عن السبيل، ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل والنظر فيه، وإن كان من المتعدي وهو " صَدَّ صَدًّا " فمعناه: صدوا غيرهم من الناس ومنعوهم كأهل الشرك يوم بدر كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر، وقيل أهل الكتاب، والأولى أن يكون عاما في كل مَنْ كَفَر وصدَّ، و**(سَبِيلِ اللَّهِ)** دينه وهو الإسلام وقيل البيت الحرام.

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي أبطلها وأذهبها وأحبطها، وجعلها ضائعة لا أثر لها أصلا، على معنى أنه حكم بذلك لا على أنه أبطلها بعد أن لم تكن كذلك.

والمراد بأعمالهم: ما عملوه في كفرهم من أنواع البر كصلة الأرحام وقِرى الأضياف وفك الأسرى وحفظ الجوار وغيرها من المكارم، أو المقصود، الكيد لرسول الله (ﷺ) والصد عن سبيله، وإبطال ذلك بنصره وإظهار دينه على الدين كله.

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) تكفير السيئات سترها بالإيمان والعمل الصالح لرجوعهم عنها وتوبتهم.

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) قال ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[1]: أي أمْرُهم، وقال مجاهد: شَأْنُهم، وقال قتادة وابن زيد: حَالُهم، والكل متقارب، وهو كالمصدر ولا يعرف منه فِعْلٌ ولا يجمع إلا في ضرورة الشعر، ويطلق على معانٍ منها: القلب كقولهم ما خطر على بالى، وعلى رخاء النفس يقال: فلان رخي البال أي النفس، والحوت العظيم، وليس بعربي، والبالة: وعاء الطيب فارسي مُعَرَّب[2] وإصلاح البال: يكون في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

(الْبَاطِلَ) هو ما لا ينتفع به، وقيل الشيطان.

(يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) أي يبين، والأمثال جمع: مَثَل، والمراد بها أحوال الفريقين، وأوصافُهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحقَّ وفوزهم واتباع الكافرين الباطلَ وخيبتهم.

الإعراب:

(الَّذِينَ كَفَرُوا) مبتدأ و **(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)** خبره [3].

(بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) على قراءة الفعل مبنيا للمفعول أو التخفيف مبنيًّا للفاعل، فعائد الموصول الضمير المستتر فيه، وعلى قراءته بالتشديد مبنيًّا للفاعل، فالعائد مفعوله المحذوف.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ص (١٧٢) ط عيسي البابي الحلبي.

(٢) انظر لسان العرب ومختار الصحاح.

(٣) التبيان في إعراب القرآن ص (٢٣٦).

(وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ) الجملة لا محل لها من الإعراب معترضة بين المبتدأ وخبره لتأكيد ما قبلها والجار والمجرور حال.

(ذَلِكَ بِأَنَّ) مرجع اسم الإشارة ما سبق من الإضلال والتكفير المفهومين من أضلّ وكفَّر، وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور، ويصح أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك، ويكون موضع الجار والمجرور النصب أي الأمر كما ذكر بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل...إلخ.

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ) الجار والمجرور **(كَذَلِكَ)** صفة لموصوف مفعول مطلق، والتقدير: يضرب ضربا كهذا الضرب، واسم الإشارة يرجع إلى معنى ما ذكر من أول السورة إلى قوله **(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)**.

(لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) الضمير إما راجع إلى الناس، وإما إلى المذكورين من الفريقين على معني يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم....

المعني العام:

الذين كفروا – وهم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث بن هشام وعتبة وشَيْبة ابنا ربيعة وغيرهم، أو كفار قريش أو أهل الكتاب، أو هو عام يدخل فيه كل الكافرين[1]– بما يجب الإيمان به وأعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه ومنعوا غيرهم من ذلك أضلّ الله أعمالهم الصالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وحفظ الجوار وإكرام

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج ١٤ ص ٢٤١.

الضيف، وأبطلها وجعلها لا نفع فيها ولا أثر لها لأنها لم تكن لله ولا بأمره، وأبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله (ﷺ) كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم لمحاربته فأبطله بنصره وإظهار دينه على الدين كله، والذين آمنوا بما يجب الإيمان به وعملوا الصالحات وهي كل ما يرضي الله تعالى، وآمنوا بالدين الذي جاء به محمد (ﷺ) وبالقرآن الذي نزل عليه وهو الحق من الله تعالى لأنه ناسخ وغيره منسوخ، كفَّر عنهم ما عملوه من السيئات وسترها بالإيمان والعمل الصالح ولم يؤاخذهم بها وأصلح بالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

ذلك الإضلال وهذا التكفير والإصلاح بسبب أن الكافرين اتبعوا الباطل والشيطان، وأن المؤمنين اتبعوا الحقَّ من ربهم، ذلك البيان البديع والضرب العجيب يضرب الله للناس أمثالهم وأحوالهم العجيبة ليعتبروا.

وقوله تعالى: **(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)** فيه مجاز إما بالاستعارة التمثيلية حيث شبَّه حال أعمال الكفار في إحباطها وإبطالها وجَعْلِهَا ضالةً ضائعة ليس لها مَنْ يتقبلها ويثيب عليها بحال إبِل ضلَّت طريقَ وصولِها إلى مأواها، وصارت بمضيعة لا ربّ لها يحفظها ويعتني بأمرها بجامع الإهمال وعدم الانتفاع في كلٍّ، واستعير التركيبُ الدَّالُ على الهيئة المشبه بها للهيئة المشبهة، وإما بالاستعارة التبعية في "أضلّ"، وذلك بتشبيه الإبطال والإحباط بالإضلال، وهو جعلها ضالة ضائعة، واستعار الإضلال للإبطال واشتق منه أضلَّ بمعنى أبطل، أو استعارة مكنية في الأعمال، حيث شبهت بالإبل

الضالة بجامع الإهمال في كُلٍّ، واستعيرت الإبل الضالة للأعمال المحبطة وحذفت ورمز إليها بشيء من لوازمها وهو الإضلال.

وفي قوله تعالى: **(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)** عطف خاص على عام، لأن قوله تعالى قبله: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)** أفاد هذا المعنى، وذلك تنويها بشأن الرسول والإيمان به، وإشارة إلى سمو مكانته من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل، أو يكون كما يقول الفخر الرازي – أعني قوله: **(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)** – بيانا لإيمانهم، أي آمنوا وآمنوا بالحق، كما يقول القائل: خرجت وخرجت مصيبًا أي وكان خروجي مصيبا حيث نجوت من كذا وربحت كذا، فكذلك لمَّا قال آمنوا بيَّن أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلا من عند غير الله.

وفي قوله تعالى: **(وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ)** قَصْرٌ لأن الخبر المُعَرَّف بأل الجنسية مقصور على المبتدأ قصر صفةٍ على موصوف قصرًا إضافيا أو حقيقيا ادعائيا، فقد قصر الحقية في القرآن أو دين محمد (ﷺ) على ما نزل على محمد لبيان أن هذه الحقية أكمل الحقيات.

وقوله **(مِن رَّبِّهِمْ)** خبر بعد خبر، كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم، أو كان وصفا فارقًا فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم؛ لأن الحق قد يكون مشاهدا، فإنَّ كونَ الشمس مضيئة حق وهو ليس نازلا من الرب، بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا.

ثم قال تعالى **(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)** أي سترها وفي قوله: **(كَفَّرَ)** إشارة إلى بشارةٍ ما كانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها لأن محو الشيء لا ينبئ عن إثبات أمر آخر مكانه، أما الستر فينبئ عنه، وضرب الإمام فخر الرازي مثالا لذلك بمن يريد سَتْرَ ثوب بالٍ أو وسخٍ لا يستره بمثله، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف.

وفي قوله تعالى: **(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)** تشبيه وتمثيل، حيث جعل سبحانه وتعالى اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار، والإضلال مثلا لخيبتهم، وجعل اتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم، وهذا هو المراد بضرب المثل في الآية.

ويجوز أن يكون المعني: يبين الله للناس أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم، واتباع الكافرين الباطل وخسرانهم.

والضمير في قوله **(أَمْثَالَهُمْ)** إمَّا أن يكون عائدا إلى الناس كافةً، قال تعالى: **(يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)** على أنفسهم، وإمَّا إلى الفريقين السابقين في الذكر، وهما الكافرون والمؤمنون، والمعنى: يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

ولا يخفي ما بين الكلمات " كفروا وآمنوا، والباطل والحق، وصدوا واتبعوا " من طباق له دوره في إبراز المعنى وتوضيحه.

قال تعالى: **(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)**.

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

الفاء في قوله تعالى: **(فَإِذا لَقِيتُمُ)** تتعلق بما قبلها لأنه لمّا بيَّن أن الذين كفروا أضلّ الله أعمالهم، واعتبار الإنسان بالعمل ومَنْ لم يكن له عمل فهو هَمَجٌ، فإن صار مع ذلك يؤذي، حسُنَ إعدامه قال: **(فَإِذا لَقِيتُمُ)** بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم، فاضربوا أعناقهم، أو أنه إذا تبيَّن تباين الفريقين وتباعد الطريقين، وأنَّ أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حُقَّ القتال عند التَّحَزُّب، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم.

معاني الكلمات:

(لَقِيتُمُ): أي حاربتم من اللقاء وهو الحرب.

(أثخنتموهم): أثخن في الأرض سار إلى الأعداء وأوسعهم قتلا، وأثخنته أوهنته بالجراحة وأضعفته، والمعنى على الأول أكثرتم قتلهم وأغلظتموه، مأخوذ من الشيء الثخين وهو الغليظ وعلى الثاني أثقلتموهم بالقتل والجراح حتي أذهبتم عنهم النهوض.

(فشدوا الوثاق): الوثاق بالفتح والكسر اسم لما يوثق به من حَبْلٍ وغيره، وقيل ذلك المكسور، وأما المفتوح فاسم من الإيثاق وقد يكون مصدرًا، وشدَّه أحكم ربطه، ومجيء الوثاق اسم آلة نادر على خلاف القياس، والمعنى: فأسروهم.

(فإما منا بعد وإما فداء): منَّ عليه منًّا من باب قتل، وامتنَّ عليه أنعم والاسم المِنَّة بالكسر، والجمع مِنن، وفداه من الأسر يفديه فدْي بفتح الفاء وكسرها إذا استنقذه بمال، واسم المال الفدية والجمع فِدَى، وفاديته مفادة وفداء أطلقته وأخذت فديته، والمنُّ على الأسير إطلاقه من غير شيء، وفداؤه فك أسره بمال أو أسرى من المسلمين.

(أوزارها): جمع وزر وهو الثقل يقال وَزَرَ يَزِرُ من باب وَعَدَ إذا حمل أحمالها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع، لأنه لمّا لم يكن بُدٌ منها فيها، فكأنها تحملها فإذا انقضت فكأنها وضعتها، والثاني حتي يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأنْ يسلموا.

(لانتصر منهم): انتقم منهم ببعض أسباب الهلاك العامة من خسف ورجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف.

(ليبلو بعضكم ببعض): بلاه يبلوه بلوا وأبلاه وابتلاه امتحنه.

(عَرَّفَهَا لَهُمْ): إما من المعرفة، والمعنى بيَّنَها لهم وأعلمهم بها، فإن كل أحد يعلم منزلته في الجنة يهتدي إليها كأنه سكنها منذ خلق، وإمَّا بأنَّ المَلَك الموكَّل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله،

وإمَّا من العَرف بفتح العين وهو طيب الرائحة، والمعنى: طيَّبها لهم وإمَّا من عرَّفها وأرَّفها أى حدَّدها لأن جنة كل واحد محدودة مفرزة عن غيرها من العَرَفَة، والأرَفَة الحد بين الشيئين[١].

الإعراب:

(فَإِذا لَقِيتُمُ) فإذا لقيتم: الفاء للفصيحة، والتقدير إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتم فضرب الرقاب: الفاء واقعة في جواب الشرط، والعامل في " **ضَرْب** " هو العامل في " **إذا** " في قوله: **(فَإِذا لَقِيتُمُ)** والتقدير: فاضربوا ضرب الرقاب، فضرب هنا مصدر فعل محذوف[٢] أضيف إلى مفعوله، وهو منصوب على المفعولية المطلقة، ولا يعمل فيه نفس المصدر لأنه مؤكد، حذف الفعل وأنيب المصدر منابه وقدم وأضيف إلى المفعول، ففيه اختصاص مع إعطاء معنى التوكيد، وقيل لا توكيد فهو نوع رابع، وقيل منصوب على الإغراء، وقيل مفعول به والتقدير: اقصدوا ضرب الرقاب.

(فإمَّا منًّا بَعْدُ وإمَّا فداء): منًّا وفداءً منصوبان على المفعولية المطلقة نابا عن فعليهما والتقدير: فإمَّا أن تَمُنُّوا منًّا، وإما أن تُفَادوا فداء، ويجوز أن يكونا مفعولين: أي أولوهم منًّا، أو اقبلوا فداء.

(حتى تضع الحرب أوزارها): أي أهل الحرب و"حتى " في قوله: حتى إذا أثخنتموهم... " ابتدائية لدخولها على الجملة، وحتى هنا غائية جارة

(١) انظر في ذلك لسان العرب ومختار الصحاح وأساس البلاغة.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ص (٢٣٦)، المكتبة التوفيقية.

للمصدر المؤول، والغاية هنا قيل: الضرب والشدُّ وقيل: المَنُّ والفِدَاءُ، والمعنى عليهما عند الشافعي: اضربوا الرقاب وشدوا الوَثاق أو منوا عليهم أو فادوهم حتى لا تكون حرب مع المشركين بأن يضعفوا، ولم تبق لهم شوكة وقال مجاهد:... حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام(١).

وعند أبي حنيفة يختلف المعنى على الغاية بها، فإن كان الضرب والشدُّ كان المعنى يُقتلون ويُؤسرون إلى أن لا تبقى لهم شوكة، وإن كان المن والفداء كان المعنى يمُنُّ عليهم أو يفادون حتى تضع حرب بدر أثقالها، وبعد حرب بدر لا منَّ ولا فداء بل القتل أو الأسر والاسترقاق لا غير أيهما يرى الإمام فَعَلَ، لأن الآية نُسِخَتْ بعد بدر إلا أن يراد بالمنِّ ترك القتل والاسترقاق أو الإخلاء وقبول الجزية إذا كانوا من أهل الذمة، وبالفداء فدى أسرى المسلمين بأسرى الكفار، وإن كان المشهور من مذهب أبى حنيفة عدم الفداء بالمال وغَيْرِه خِيفَة أن يَعُودوا حربا على المسلمين، بخلاف الشافعي فإنه يرى أن الإمام مخير بين الأربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين(٢).

ذلك: المشار إليه ما ذكر من القتل وما بعده، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر فيهم ذلك، أو مفعول لمحذوف أي افعلوا فيهم ذلك.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص (١٧٣).

(٢) انظر الفقه على المذاهب الأربعة جـ٥ ص (٣٠٠) والفقه الواضح جـ٣ ص (٧٩).

(ولكن ليبلو): المصدر المؤول متعلق بمحذوف والتقدير: ولكن أمركم بالحرب والقتال ليختبر بعضكم ببعض – فيبلو المؤمنين بالكافرين لأجل أن يجاهدوا ويصبروا حتي يستحقوا الثواب، ويبلو الكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب.

(فلن يضل أعمالهم): الفاء زائدة في الخبر لأنه أشبه الشرط في العموم.

(عرفها لهم): الجملة في موضع الحال من المفعول بتقدير قد أو بدونها أو استئنائية.

المعنى العام:

يقول تعالى مرشدا المؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: فإذا لقيتم الكفار في الحرب فاقتلوهم واحصدوهم حصدًا بالسيوف، فإذا كثر القتل فيهم وتمكنتم من أخذ مَنْ لم يقتل فشدوا وثاقهم وأحكموا أسرهم، والأمر بعد ذلك موكول للإمام فإمَّا أن تَمُنُّوا عليهم وتُطلقوا سراحهم مجانا بلا مقابل، وإما أن تَسْتَرِقُّوهم، وفي ذلك خلاف بين الأئمة يراجع في كتب الفقه، إلى أن تضع الحرب أثقالها وتنقضي، ويترك أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، الأمر والحكم ما ذكر، ولو يشاء الله لانتصر منهم وانتقم ببعض أسباب الهلاك العامة من خسف وغرق وتدمير ورجفة، ولكنْ أمَرَكم بقتالهم ليختبر بعضكم ببعض فيبلو المؤمنين بقتال الكافرين بأن يجاهدوا فينالوا الثواب، ويبلو الكافرين بالمؤمنين فيعالجهم

ببعض انتقامه، والذين قتلوا في سبيل الله واستشهدوا وكذلك الذين قاتلوا ونجوا من القتل فلن يضل الله أعمالهم، ولن يضيعها بل سيهديهم ويوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المقيم والفضل العظيم، ويصلح بالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة، ويدخلهم الجنة قد عَرَّفها لهم وبينها وحددها وميزها وشرفها ورفعها وطيبها.

وفي قوله تعالى: **(فَضَرْبَ الرِّقَابِ)** كناية أريد بها صفة فقد كَنَّى بضرب الرقاب عن القتل، وخَصَّ الرقاب بالضرب لأن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، وللإشارة إلى أن الواجب أن تُضْرَب الرقاب خاصة لما في ذلك من تصوير القتل بأبشع صورة وهو حَزُّ العضو الذي هو رأس البدن على هيئة منكرة، ويحتمل أن يكون في الكلام مجاز مرسل من إطلاقه السبب وهو ضرب الرقاب وإرادة المسبب وهو القتل.

قال المولي – عز وجل – هنا **(فَضَرْبَ الرِّقَابِ)** بإظهار المصدر وترك الفعل، وقال في الأنفال **(فاضربوا فوق الأعناق)** بإظهار الفعل وترك المصدر، وذلك لأن في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها، والملائكة أُنْزِلوا لنُصْرَة مَنْ حضر في صف القتال، فصدور الفعل منه مطلوب.

أما في هذه الآية فالأمر وارد في وقت ليس فيه قتال بدليل قوله تعالى: **(فَإِذا لَقِيتُمُ)** والمقصود بيان كون المصدر مطلوبًا لتقدم المأمور على الفعل قال: **(فَضَرْبَ الرِّقَابِ)**.

وأيضا في سورة الأنفال المولى عز وجل قال هناك: **(واضربوا منهم كل بنان)**، وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل، أما في الآية التي معنا ليس الوقت وقت قتال فبيَّن أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

وفي قوله تعالى: **(أَثْخَنتُمُوهُمْ)** استعارة تبعية، حيث شبه إيقاع القتل فيهم بكثرة وشدة بإثخان المائعات بجامع عدم الحركة في كل، واستعير الإثخان لإيقاع القتل واشتق منه أثخن بمعنى أوقع القتل بكثرة.

ولا يخفي جمال الاستعارة في الدلالة على قتل العدو بشدة مبالغ فيها وبكثرة وغلظة.

يقول الزمخشري: ومن المجاز: أثخنته الجراحات، وتركه مثخناً، وأثخن في العدو: بالغ في قتلهم وغلّظ[1].

وفي قوله تعالى: **(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)** استعارة تصريحية أصلية، شبهت فيها آلات الحرب من سلاح وغيره بالأحمال بجامع المشقة في كل، واستعيرت الأوزار وهي الأعمال في الأصل للسلاح وغيره.

ويجوز أن يكون في الحرب استعارة بالكناية شبهت فيه الحرب بإنسان يحمل واستعير لها وحذف.

(١) أساس البلاغة ص (١٠٥) مادة " شحن ".

أو في الكلام استعارة تمثيلية، شبهت فيها حال المشركين في حملهم للشرك والمعاصي بحالهم وهم في الحرب يحملون السلاح وغيره بجامع التعب والمشقة في كل، أو المراد حتى تنقضي الحرب، وإسناد الوضع للحرب مجاز عقلي عبر فيه بالمصدر وأراد المتحاربين، أو فيه مجاز بالحذف والتقدير: حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم بالإسلام.

وجمال إسناد الوضع إلى الحرب في هذه الآية يكون في إفادة أن المقصود من قوله: **(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)** الحرب الكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزبا من أحزاب الإسلام، ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب أو أهل الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بمادتها، ولكن في إسناد الوضع إلى الحرب يكون المعنى أن الحرب لم تبق.

وأما قوله تعالى: **(لَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)** قد علم معنى الإضلال، بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال، قال: أضل، وقال في حق المؤمن الداعي لن يضل، لأن المقاتل داعٍ إلى الإيمان؛ لأن قوله: **(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)** قد ذكر أن معناه حتي لم يبق إثم بسبب حرب، وذلك حيث يسلم الكافر، فالمقاتل يقول: إما أن تسلم وإما أن تقتل، فهو داع، والكافر صادّ، وبينهما تباين وتضاد، فقال في حق الكافر: أضل بصيغة الماضي، ولم يقل "يضل" إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم وكأنه لم يوجد من أصله.

وقال في حق المؤمن فلن يضل، ولم يقل ما أضل إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له، فلن يضل للتأبيد، وبينهما غاية الخلاف، كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد.

وقوله تعالى: **(وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)** جاء بصيغة المضارع هنا، وفي أول السورة جاء بصيغة الماضي **(وأُصْلِحُ بَالَهُمْ)** لأنه هناك في أول السورة وعَدَهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم، فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع وهي صيغة الماضي **(أَصْلِحُ)** وهنا وعَدَهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال، لأن قوله تعالى: **(فَإِذا لَقِيتُمُ)** يدل على الاستقبال فقال: **(وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)**

وقوله تعالى: **(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)** له علاقة بما قبله، فكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال، **(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ)** فهو على ترتيب الوقوع.

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عليهم وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ).

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

أنه تعالى لمَّا بيَّن ما على القتال من الثواب والأجر وعَدَهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام فقال **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... الخ)**، وأيضا بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية، ثم ذكر المقابل وهم الكفار وما ينالهم من تعس وخيبة أمل، وضياع للأعمال ليزداد المؤمنون ثِقةً وثباتا، وأنهم هم المنصورون وعَدُوهم له الزوال والتغيير والهلاك.

معاني الكلمات:

(فتعسًا لهم): تَعَسَ تعسًا من باب نَفَعَ، بمعنى أكبَّ على وجهه فهو تاعس، وضده: انتعش أي قام من سقوطه، أو من باب تَعِبَ، فهو تعس، ويتعدى بالحركة والهمزة، فيقال: تَعسه الله وأتعسه، وفي الدعاء: تعسًا له، والمعنى في الآية الدعاء عليهم بالقتل في الدنيا والتردي في النار في الآخرة.

(دمر الله عليهم): الدمار الهلاك ودمره أهلكه، ودمر عليه أهلَك عليه ما يختص به، **والمعنى:** دمر عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم.

(مولى الذين آمنوا): المولى الناصر أو الرب المالك، وعلى الأول **(وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)** وعلى الثاني **(ورُدُّوا إِلَى الله مَوْلاهُم الحَقّ)** فلا تناقض في إثبات المولى لهم ونفيه عنهم.

الإعراب:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)[1] مبتدأ والخبر محذوف تقديره: تعسوا أو اتعسوا دلَّ عليهما قوله:**(فَتَعْسًا لَّهُمْ)**: والفاء واقعة في الخبر لشبهه بالشرط، وتعسًا مفعول مطلق لمحذوف وجوبًا نائب عن فعله في الدعاء، والأصل تَعَسَهم الله حذف الفعل، وناب المصدر منابه، والجار والمجرور " لهم " بعده متعلق للتبيين **والتقدير**: أعني لهم، فالكلام جملتان وقيل جملة واحدة وعليه فمتعلق الجار والمجرور محذوف صفة لـــ " تعسًا ".

وجوَّز الزمخشري أن يكون مفعولا به لمحذوف أي فقضى تعساً لهم والجملة خبر الموصول، والدعاء لا يقع خبراً.

وقوله: **(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)** معطوف على الفعل العامل في " تعساً ".

وقوله: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا)** الفاء عاطفة على مقدر أي أَقَعَدُوا أو أعمُوا فلم يسيروا، أو على ما قبلها إذا كانت الهمزة مقدمة من تأخير والأصل فألم يسيروا.

وقوله: **(دَمَّرَ اللَّهُ عليهم)** " استئناف بياني فكأنه قيل كيف كانت عاقبتهم، فقيل أهلك ما يختص بهم من النفس والأهل والمال.

وقوله: **(وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)** الضمير عائد على العاقبة المذكورة أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها، أو السُنَّة لقوله تعالى: **(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ**

(١) التبيان في إعراب القرآن جـــ٢ ص (٢٣٦).

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ) وقوله: **(ذَلِكَ بِأَنَّ)** يرجع اسم الإشارة إلى نصر المؤمنين وقهر الكافرين المفهومين مما سبق، وهو مبتدأ خبره متعلق الجار والمجرور بعده، أو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك بسبب أن، أو مفعول لمحذوف أي فعل ذلك بسبب أن.

المعني العام:

يأيها الذين آمنوا إن تنصروا دين الله باتباعه واتباع رسوله بالاقتداء به ينصركم على أعدائكم ويفتح لكم، ويثبت أقدامكم في مواطن الحرب ويوفقكم للدوام على الطاعة، والذين كفروا أتعسهم الله وأكبَّهم على وجوههم وأضل أعمالهم، ذلك الهلاك والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما أَلِفُوه، وما اشتهته أنفسُهم الأمَّارة بالسوء، فأحبط الله أعمالهم التي عملوها من البر، لذلك أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين سبقوهم من الأمم المكذبة دمَّر الله عليهم أنفسهم وأموالهم وأولادهم بسبب تكذيبهم ولأمثالهم من المكذبين عاقبتهم، هذا النصر وذلك القهر بسبب أن الله ناصر الذين آمنوا وأن الكافرين لا ناصر لهم.

وفي قوله تعالى: **(إِن تَنصُرُوا اللَّهَ)** مجاز عقلي وقع في النسبة الإيقاعية أي أن الفعل هنا **(تَنصُرُوا)** وهو متعد واقع على مفعوله المجازي " لفظ الجلالة "، وليس ذلك على سبيل الحقيقة العقلية بل على المجاز العقلي لعلاقة السببية، لأن النصر لا يقع على لفظ الجلالة حقيقة إذ لا

يتصور أن أحدا ينصر الله من غلبة وقهر – حاشا لله – وإنما المقصود – والله أعلم – نصر دينه وطريقه، أو حزبه وفريقه.

وقوله تعالى: **(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)** فيه مجاز مرسل من إطلاق البعض وإرادة الكل، والمراد ويثبتكم في مواطن الحرب، وإنما عبَّر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها.

وبدئت الآيات التي نحن بصددها بجملة النداء فقال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...الخ)** وجملة النداء هذه تتضمن فنونا من التوكيد، منها استعمال حرف النداء " **يَا** " الذي للبعيد للإشارة إلى أن الذين آمنوا ينادون لأمر مهم وخطير، فيجمعوا قلوبهم وعقولهم لتلقيه، ولولا هذه الإشارة لجئ بـــ " أي " أو الهمزة لأن الله قريب إلى كل منادٍ، وقد قال النحاة أن " يا " تستعمل في نداء البعيد، أو من ينزل منزلته من الساهي والغافل، وقال ابن هشام: وقد ينادى بها القريب توكيداً[1].

ولم يقع في القرآن نداء بـــ " أي " ولم يقع فيه كذلك نداء بالهمزة، وإنما استعمل في النداء " يا " وحدها دون غيرها، لأنها أندى وأنفذ ولا ينادى اسم الله إلا بها، وكذلك الذي وقع في نداء أيتها سواها، ولا يقدر عند الحذف غيرها نحو قوله تعالى في سورة يوسف **(يوسف أعرض عن هذا)**.

(١) انظر قطر الندي لابن هشام ص (٢٨١) وشذور الذهب في معرفة كلام العرب ص (١١٠) وما بعدها.

قال الزمخشري[1]: وتفيد ياء التوكيد المُؤذِن بأن الخطاب الذي يتلوه مَعْنيٌّ به جدًا، وقال البلاغيون: وإنما يقول الداعي في دعائه: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر، استقصارًا منه لنفسه، واستبعادًا لها من مظان الزلفي، وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين، هضما لنفسه، وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله.

ومنها " أي " وهي اسم مبهم يفتقر إلى ما يوضحه، ويكون صلة لنداء ما فيه الألف واللام، فإذا أردت نداء الرجل، وكُلِّ ما هو مُعَرَّف بـــ " أل " فإنك لا تستطيع أن تدخل عليها حرف النداء، وحينئذ تستعين بـــ " أي " هذه، فتقول: يا أيها الرجل، ويأتي بعد " أي " اسم يوضح إبهامه، ويكون وصفا لـــ " أي "، فحرف النداء في جملتنا داخل على " أي " وعامل فيه ولفظ "الذين " وصف له موضح لإبهامه، وفي التوضيح بعد الإبهام لون من التأكيد والتقرير، وذلك لتشوف السامع مع الإبهام إلى ما يزيله ويكشف غموضه، فإذا جاء الموضح، قرَّ في النفس وتمكن منها، ومنها هذه الهاء الممتدة بين " أي " والوصف تُعَاضِد حرف النداء وتقويه، فتزيد هذه الطريقة من النداء قوة ووكادة.

وقد ترددت هذه الطريقة في نداء القرآن أكثر من ترددها في كلام العرب، وقد أجاب الزمخشري عن السر البلاغي وراء هذه الكثرة في نداء القرآن بقوله: " بأن ذلك لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة

(١) انظر من أسرار التعبير القرآني د/ محمد أبو موسي ص (٤٣٩).

لأن كُلَّ ما نادى الله له عباده من أوامره، ونواهيه وعظاته، وزواجره ووعده، ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقولهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون فاقتضت الحال بأن يُنَادوا بالأكيد الأبلغ".

ثم قال تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ)** هذا زيادة في تقوية قلوبهم، لأنه تعالى لما قال: **(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)** جاز أن يُتَوَهَّم أن الكافر أيضا يصبر ويثبت للقتال والحراب والطعان والضراب، وفيه المشقة العظيمة، فقال تعالى: لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك.

وقال في حق المؤمنين: **(وَيُثَبِّتْ)** بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حق الكافرين **(فَتَعْسًا لَّهُمْ...)** بصيغة الدعاء وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله، لأن عثارهم واجب؛ لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء[1].

وقوله: **(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)** إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لموتى المسلمين حيث قال في حق قتلى المسلمين **(فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)** وقال في موتي الكافرين **(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)** فهذا الفعل محقق الوقوع.

(١) انظر مفاتيح الغيب ج ١٤ ص (٢٦١).

ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فقال **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)**.

وقوله تعالى: **(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)** الحَبَطُ في اللغة أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها فتموت، ويأتي مع الأعمال مجازا، ووجه هذا المجاز تشبيه الإبطال بالإحباط بجامع ما يترتب على كل من عدم الفائدة، ثم استعارة الإحباط للإبطال على طريقة الاستعارة التبعية، وقد خيَّل هذا التَجَوُّز أعمالَ المنافقين جيفا فاسدة منتفخة تملأ الجو نفورًا واستقذارًا، وهذه الأعمال باعثها هو إرضاء الناس، وكسب الثناء بينهم، فلما خلت مما به تقبل الأعمال مستها يد القدرة فأحبطتها فصارت كما ترى، وقد كثرت استعارة الإحباط للإبطال حتى ظنَّ من لم ينظر في كتب اللغة ومعاني الألفاظ أنها من أساليب الحقيقة، ولم يلتفت إلى ما فيها من مجاز، وهذه مرحلة من مراحل تطور الاستعمال اللغوي، أي أن تستعمل الكلمة استعمالا مجازيا، ثم يشيع هذا الاستعمال ويكثر حتى ينسى أصحاب اللغة المعنى الحقيقي للكلمة فيصير حقيقة فيما كان فيه مجازاً[1].

وقال المفسرون: إن الإحباط هنا مراد به إظهار البطلان، وليس المراد أنه أبطلها، لأنها باطلة منذ عُملت؛ لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، وقد ذهبوا إلى ذلك، لأن الإحباط كأنه عندهم مرادف للإبطال، وهذه الأعمال لا يقال فيها إن الله أبطلها، لأن إبطالها فرع صحتها وهي لم

(١) انظر أسرار التعبير القرآني د/ أبو موسي ص (١٤٣).

يتوفر فيها شرط الصحة، فاستعمال البطلان في أعمال المنافقين والكافرين مجاز عن إظهار البطلان، وعلاقته اللزوم لأن البطلان لازم لإظهاره، وبهذا يكون قوله: **(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)** مجاز عن البطلان الذي هو مجاز عن إظهار البطلان، وهذا يسميه البلاغيون المجاز عن المجاز، أو المجاز بمرتبتين.

والاستفهام في قوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...الخ)** للتقرير أي هم ساروا في الأرض ونظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ومع ذلك لم يتعظوا وينزجروا، وفيه معنى التعجب من أمرهم حيث لا يتعظون بآيات واضحة.

وقوله تعالى: **(دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم)** أي أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد، وفيه مبالغة حيث حذف مفعول الفعل " **دَمَّرَ** " حتى صار نسيا منسيا للتعميم، فيتناول نفسه وكل ما اختص به من مال وأهل... الخ وأتي بـــ " على " لتضمينه معني أطبق عليهم، وأوقع التدمير عليهم محيطا بهم.

وقوله تعالى: **(وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)** يحتمل أن يكون المراد لهم أمثالهم في الدنيا، وحينئذ يكون المراد في الكافرين هم الكافرون بمحمد (ﷺ).

أو أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد مَنْ تقدم، كأنه يقول: دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها، والضمير في قوله: " أمثالها " يعود على المذكور وهو العاقبة أو المفهوم وهو العقوبة؛ لأن

التدمير كان عقوبة لهم وعلى التقدير الثاني للآية وهو **(دَمَّرَ اللَّهُ عليهم وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)** يكون فيها وضع للظاهر – أعني الكافرين – موضع المضمر – أعني ولهم – وبلاغة هذا الأسلوب في ذكر الموجب للعقوبة، وهو الكفر، أي لمَّا كانوا كافرين استحقوا هذه العقوبة.

وقوله تعالى: **(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)** أي الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين والكافرين اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر وتركوا الله فلا ناصر لهم.

ويلاحظ أنه قيل هنا **(لَا مَوْلَى لَهُمْ)** وفي الأنعام **(مولاهم الحق)**، لأن المولي هنا بمعنى السيد والرب والناصر، فحيث قال **(لَا مَوْلَى لَهُمْ)** أراد لا ناصر لهم، وحيث قال **(مولاهم الحق)** أي ربهم ومالكهم الذي يستحق التوحيد والطاعة.

قال الله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)**.

علاقة الآيات بما قبلها:

لمَّا بيَّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين حالهم في الآخرة وقال أنه يدخل المؤمن الجنة، والكافر النار.

معاني الكلمات:

(يَتَمَتَّعُونَ): ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ساهون عما في غدهم، **مثوى:** اسم مكان من ثوى بالمكان نزل به وأقام.

(وَكَأَيِّن): اسم بمعنى الخبرية، وقرئ كائن بوزن فاعل.

بَيِّنَةٍ من رَبِّه: حجة من عند الله وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات.

الإعراب:

(كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ): ما مصدرية، والمصدر المؤول مجرور، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف مفعول مطلق، وقال سيبويه: الكاف اسم بمعنى حال من ضمير الآكل المحذوف والتقدير: يأكلونه أي الأكل حال كون الأكل مثل أكل الأنعام، والأول أولى.

(وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ): الواو للحال والجملة حال من فاعل يأكلون أو للاستئناف.

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ): كم خبرية مبتدأ، ومن قرية تمييز لها، والجملة بعدها صفة لقرية وجملة **(أَهْلَكْنَاهُمْ)** خبر، ويجوز أن تكون منصوبة على الاشتغال بمحذوف يفسره أهلكناهم.

(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، والتقدير: أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقرًا على حجة ظاهرة وبرهان نيِّر من مالك أمره ومربيه كمن زُيِّن له سوء عمله من الشرك وسائر المعاصي، وقرئ بدون الفاء ومَنْ مبتدأ وخبره كمَنْ.

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ): الجملة معطوفة على جملة زُيِّن، وجمع الضمير مراعاة لمعنى " مَنْ " بعد أن أفرده مراعاة للفظها.

المعني العام:

يخبر المولي عز وجل في هذه الآيات بأنه يتفضل على الذين آمنوا فيدخلهم جنات عظيمة تجري من تحتها الأنهار، والذين كفروا بما يجب الإيمان به يتمتعون في هذه الدنيا ولا يهمهم فيها إلا الأكل والملذات كالأنعام غير عابئين بالعاقبة، ولا مستدلين بما ينتفعون على مُوجِد هذه المنافع، ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن إخراج النبي (ﷺ) من مكة إلى الغار وحزن النبي على قريته هذه، وقال قولته المشهورة وهو ينظر إليها، " أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إليَّ ولولا أنَّ قومك أخرجوني منك ما خرجت " فقال له تعالى هذه الآيات تسليه وتطييبا لخاطره **(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ...** الخ)، أي وكم من قوم هم أشد قوة من قومك الذين كانوا سببا في خروجك أهلكناهم بأنواع العذاب فهم لا ينصرون.

ثم استفهم المولى منكرا التسوية بين مَنْ كان على بيِّنَة من ربه كالنبي وأتباعه، ومَنْ زُيِّنّ له سُوء عمله من عبادة الأصنام وفعل الموبقات واتباع الشهوات غير مبال بالعاقبة وسوء المآل.

وفي قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ...** الخ) ورد لفظ " **جَنَّاتٍ** " منكّرا ليفيد التعظيم من شأن تلك الجنات، وليتسنى للفظ الوصف بالجملة بعده، فهي جنات تجري من تحتها الأنهار، وفي قوله **(مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)** لفظ " من " يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها أي ينبع الماء منها لا يجري إليها من موضع آخر.

وفي قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ)** خص المولى الكفار بالذكر مع أن المؤمن أيضا له أن يتمتع بالدنيا وطيباتها **(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)** إلا أنه أعد للمؤمن في الآخرة أكبر بكثير من الدنيا وملذاتها، ومن ثم لا يذكر المؤمن إلا بالملك العظيم والنعيم المقيم، أما متاع الدنيا بالنسبة له لا يلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا **(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ... إلخ).**

وقوله تعالى: **(وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ)** يحتمل وجوها [1].

(١) انظر مفاتيح الغيب ج ١٤ ص (٢٦٥).

أحدها: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحا ويقوى عليه.

وثانيها: الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك.

وثالثها: الأنعام تعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح، وكذلك الكافر، ويناسبه قوله تعالى:**(وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)** ففي الآية تشبيه تمثيلي شبه انتفاع الكفار بمتاع الدنيا أياما قلائل، وأكلهم غافلين غير مفكرين في العاقبة بأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح بجامع الغفلة وعدم النظر إلى المآل في كل.

وقوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا...** الخ) فيه إسناد إدخال المؤمنين الجنة إلى الله، فضلا عن مجيء الجملة إسمية مؤكدة بإن، كل ذلك يدل على إكرام الله للمؤمنين وتفضله عليهم بالجنة، وللإيذان بسبق الرحمة، وللإعلام بمصير المؤمنين والوعد بأن عاقبتهم دخول الجنة، وخولف ذلك مع الكافرين فقال تعالى: **(وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)** بصيغة تنبئ عن الاستحقاق، أي هذه نتيجة طبيعية لمن كفر بأنعُم الله وتمتع بها ولم يتدبرها وأكل كما تأكل الأنعام حيث لا تستدل بالمأكول على خالقها، وتعلف لتسمن وهي غافلة عن مآلها ومصيرها.

ولما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله **(أفلم يسيروا في الأرض)** ودعاهم إلى التدبر فلم يستجيبوا ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل، ضرب

للنبي عليه السلام مثلا تسلية له فقال: **(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ)** وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم، فاصبر كما صبر رسلهم ويجوز أن يكون في قوله تعالى **(وكم من قرية...الخ)** مضاف محذوف أي وكم من أهل قرية هم أشد قوة، ويجوز أن يكون فيه مجاز مرسل من إطلاق المحل وإرادة الحال.

وإسناد الإخراج إلى أهل القرية مجاز عقلي من الإسناد إلى السبب ووصف القرية الأولى بشدة القوة للدلالة على أن الثانية أجدر منها بالإهلاك لأنها أضعف، كما أن وصف الثانية بأنها هي التي أخرجته ليدل على فداحة جنايتها وعظم مصيبتها وما اقترفت في حق النبي (ρ) وقوله: **(فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)** قال الزمخشري: كيف قوله: **(فلا ناصر لهم)** مع أن الإهلاك مضي، وقوله **(فَلَا نَاصِرَ لَهُ)** للحال والاستقبال (لأن اسم الفاعل " ناصر" حقيقة يكون في المتلبس بالفعل في الحال فكان الظاهر أن يقال **(أهلكناهم فهم لا ينصرون)**

والجواب: أنه محمول على الحكاية كالحال الحاضر، ويحتمل أن يقال: أهلكناهم في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه.

ويحتمل أن يقال قوله: **(فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)** عائد إلى أهل قرية سيدنا محمد(ﷺ) وكأنه قال: أهلكنا من تقدم من أهل قريتك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين.

وقوله تعالى: **(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)** فيه إشارة إلى الفرق بين النبي(ﷺ) والكفار، ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة النبي (ﷺ) في الدنيا محقق، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن.

وقوله **(عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ)** دليل الفرق بين النبي (ﷺ) الذي يتبع هدي السماء، فهو على بيِّنة واضحة وحجة ظاهرة وبرهان ساطع من ربه، وبين من زُيِّن له سوء عمله من الشرك وسائر المعاصي، والهمزة التي صدرت بها الآية للإنكار أي لا يستوي أو لا يكون.

وكذلك قوله: **(كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)** فرق فارق، وقوله تعالى: **(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)** متمم للمعنى حيث يكون من اتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان يكون في غاية البعد عن الحق والصواب وجاء قوله تعالى: **(كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)** بصيغة المفرد حملا على لفظة "من" فالكلام راعى لفظة " من " فجاء بصيغة الواحد.

أما قوله تعالى:(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ) فمحمول على المعنى، لأن لكل واحد هوى يختلف عن الآخر، ولكن التزيين للكل على حد واحد، فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه، فظهر التعدد فحمل على المعنى [1].

(١) انظر مفاتيح الغيب ص (٢٦٧).

قال الله تعالى:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ)

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

لمَّا بيَّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيَّن الفرق بينهما في المرجع والمآل، ولمَّا قَدَّمَ مَنْ على بيِّنة في الذكر على مَنْ اتبع هواه، قدَّم حاله في مآله على حال مَنَ هو خلاف حاله.

وقيل استئناف مسوق لبيان ما في الجنة من نعيم، أعده الله للمؤمنين.

معاني الكلمات:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ): المثل الوصف العجيب الشأن، وقرئ أمثال الجنة.

غير آسن: اسم فاعل وقرئ أسن كحذر صفة مشبهة من أَسَن يأسَن من باب ضرب ونصر وفرح إذا تغير طعمه أو لونه أو ريحه من طول المكث ونحوه، وأسِن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة منها فغُشِي عليه أو دار رأسُه.

(عسل مُصَفًّى): العسل يذكر ويؤنث ويصغر على عُسَيْلة على لغة التأنيث، وعسل الطعام إذ عمله بالعسل من باب ضرب ونصر، والعاسل الذي يأخذ العسل من بيت النحل.

(ماء حميماً): شديد الحرارة.

(فقطع أمعاءهم): الأمعاء جمع معي بالفتح والكسر يذكر ويؤنث، والثاني قليل وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة(١).

الإعراب:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ): مبتدأ واختلف في خبره فقيل: محذوف وقدره سيبويه فيما قصصناه مثل الجنة، أو فيما يتلى عليكم، ثم يستأنف ويقول: فيها أنهار، وقيل الخبر هو **(فِيهَا أَنْهَارٌ)** وهو ضعيف لأن الضمير في الخبر عائد إلى ما أضيف إليه المبتدأ ويجب أن يعود إلى المبتدأ نفسه، إلا إذا جعل لفظ " مثل" زائدا صح هذا التقدير، وقيل: الخبر كمن هو خالد إلَّا أنَّ في الكلام حذفا والأصل أمثل أهل الجنة كمن هو خالد في النار، أو أمثل الجنة كمثل جزاء مَنْ هو خالد في النار، فالمضافان محذوفان، الجزاء بقرينة مقابلة الجنة، والمثل بقرينة تقدمه، وكذلك همزة الاستفهام، وحينئذ تكون جملة **(فيها أنهار)** إما حال من الجنة، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي فيها أنهار، وتكون الجملة جوابا عن سؤال هو: ما مثلها، أو تكرير للصلة

(١) انظر لسان العرب.

التي هي جملة **(وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)** وقيل: لا حذف وقوله: **(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ)** خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أمَنْ هو مُنَعَّم في هذه الحياة كمن هو خالد.

لذة للشاربين: قرئ بالجر على الصفة لخمر، والرفع صفة لأنهار، والنصب على المفعول لأجله، ولذَّة صفة مشبهة مؤنث لذَّ بمعنى لذيذ، وقيل: مصدر نُعِتَ به مبالغةً.

ومغفرة من ربهم: إما معطوف على كل الثمرات على أنَّ " من " زائدة، أو مبتدأ خبره محذوف والجملة معطوفة على الجملة قبلها بدون مراعاة قيد فيها، أو معه على أن المراد بالمغفرة أثرها وهو النعيم أو ستر الذنوب أو على أن في الكلام مضافا محذوفا أي ونعيم مغفرة.

(كَمَنْ هُوَ): الكاف في موضع رفع: أي حالهم كحال من هو خالد في الإقامة الدائمة، وقيل هو استهزاء بهم، وقيل هو على معنى الاستفهام أي: أكمن هو، وقيل: هو في موضع نصب أي يشبهون من هو خالد فيما ذكرناه[1].

المعني العام:

يصف المولى – عز وجل – الجنة التي وعدها المتقين الذين اتقوا عقاب الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فهي – أي الجنة – عجيبة الشأن، حيث فيها أنهار من ماء غير آسن لم يتغير طعمه ولا لونه ولا ريحه

(١) انظر التبيان في إعراب القرآن ج ٢ ص (٢٣٧).

لطول المكث ونحوه بخلاف أنهار الدنيا، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه فلم يحمض ولم يحلب من الضروع كألبان الدنيا بل خلق في الأنهار ابتداء، وأنهار من خمر لذيذة للشاربين ليس فيها كراهة طعم وريح، ولا غائلة سكر كخمور الدنيا، وأنهار من عسل مصفى مما يشوبه ويخالفه، فلا يخالطه شمع ولا فضلات عما يخالط عسل الدنيا ولهم في الجنة من ذلك كله ما يشتهونه من الثمرات، ومغفرة لذنوبهم من ربهم وعدم مؤاخذة عليها، فيتم لهم بذلك النعيم، أفمن هذه حاله كمن هو خالد في نار جهنم وسقوا فيها ماءً حميمًا شديد الحرارة مكان تلك الأشربة اللذيذة، فقطع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم وشوي وجوهم وأسقط فروة رؤوسهم، لا يستوي الحالان.

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا في أسلوب جزل ونظم دقيق، نعرفه من خلال عرضنا لتلك الآيات وبيان ما فيها من حسن ودقة في التعبير.

فقوله تعالى: **(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)** أتى بلفظة " **مَثَلُ** " الدالة على الوصف العجيب الشأن في صدر الآيات التي أكدت بعد ذلك هذا المعنى، حيث فيها كذا، وكذا... إلخ، وآثر التعبير في الصلة بالمتقين دون غيره للإشارة إلى أن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى، وألمَحُ في بناء الفعل " وُعِد" للمجهول ملمحا دالا ومعبرا في تقديري، – والله أعلم – وهو: كأن هؤلاء المتقين لفرط رضا الله عليهم يبشرون بالجنة ويوعدون بها من كل أحد إكراما لهم.

وقوله تعالى: **(فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى)** فاختار الأنهار من الأجناس الأربعة المذكورة في الآية، بادئا بالماء لأنه مما لا يستغنى عنه ثم باللبن لأنه يجري مجري المطعوم عند كثير منهم، ثم بالخمر لأن النفس تتشوق إلى ما تتلذذ به بعد الآكل والشرب، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء مما يعرض للمشروب والمطعوم.

ثم عَرَّي كُلَّ واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها في الدنيا، فالماء غير آسن، واللبن لم يتغير طعمه إذا بقي زمانا والخمر لذة للشاربين غير مكروهة، والعسل مصفًّى مما يشوبه من شمع ونحل يموت فيه.

ثم الآية الكريمة قرنت بين الجنسين، فالماء الذي يشرب لا للطعم وهو عام الشرب وقرن به اللبن الذي يشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ يشربه الفقير والغني، والصغير والكبير ثم ذكر الخمر الذي يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب، وقرن به العسل الذي يشرب لطعمه وهو قليل الشرب.

وقال في الخمر: **(لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين؛ وذلك لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يتلذذ به شخص ويعافه الآخر فقال: **(لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** جميعا لأن الخمر كريهة الطعم فقال **(لَّذَّةٍ)** أي لا يكون في خمر

الآخرة كراهة الطعم، بخلاف الطعم واللون فإنهما – أي في خمر الدنيا والآخرة – واحد والاختلاف إنما هو في التلذذ بهما.

وجاء لفظ **(أَنْهَارٌ)** نكرة مبينة بما بعدها، لتفيد أن هذه الأنهار عظيمة عجيبة غير مألوفة، حيث هي أنهار من نوع خاص، ماء غير آسن، ولبن لم يتغير طعمه، وخمر لذة للشاربين، وعسل مصفى.

والسر في حذف همزة الاستفهام الإنكاري في **(مَثَلُ الْجَنَّةِ)** في أحد أوجه الإعراب السابقة هو زيادة تصوير مكابرة من يُسَوِّي بين الفريقين، وأن من اشتبه عليه حال المتمسك بالبينة وحال مَنْ اتبع هواه الدال عليهما قوله: **(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ...** الخ) الآية، فالثاني مثله عنده وهو الدال عليه قوله: **(مَثَلُ الْجَنَّةِ)** الآية، وإذن لا يستحق الخطاب.

ثم قال تعالى **(وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ)** بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول، ولما كان في الجنة الأكل لا للحاجة، ذكر الثمار، فإنها للذة بخلاف الخبز واللحم.

وتقديم الخبر **(وَلَهُمْ)** للاهتمام بشأنهم، أو للحصر والقصر، أي لهم هم خصوصاً من كل الثمرات.

وتنكير لفظه **(وَمَغْفِرَةٌ)** للتعظيم والتفخيم، فهي مغفرة عظيمة تستر الذنوب، وتواري قبائح ما ينتج عن الأكل والشرب من إخراج للفضلات حيث لا إخراج هناك في الجنة، فكل عيب وكل نقيصة مستورة خفية، وكأنه قال للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم

ويحوجهم إلى قضاء حاجة ثم قال تعالى: **(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ)**.

أورد الفخر الرازي فيه مسائل :

المسألة الأولي: على قول مَنْ قال: **(مَثَلُ الْجَنَّةِ)** معناه وصف الجنة فقوله " **كمَنْ هُوَ** " بماذا يتعلق ؟.

نقول قوله **(وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ)** يتضمن كونهم فيها، فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد في النار، فالمشبه يكون محذوفا مدلولاً عليه بما سبق.

ويحتمل أن يقال ما قيل في تقرير قول الزمخشري: إن المراد هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمقام مَنْ هو خالد في النار في المكث والبقاء.

المسألة الثانية: قال الزجاج قوله تعالى: **(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ)** راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال: **(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)** وهو خالد في النار، فهل هو صحيح أم لا؟، وفيه نظر.

المسألة الثالثة: قال **(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ)** حملا على اللفظ الواحد، وقال: **(وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا)** على المعنى وهو جمع...الخ.

المسألة الرابعة: الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة وهو الحدة التي تكون في السموم المدفونة، وإلا فبمجرد الحرارة لا يقطع.

قال الله تعالى:

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِليكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ)

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

لمَّا بيَّن الله تعالى حال الكافرين ذكر هنا حال المنافقين بأنهم من الكفار، لأن النفاق أشد أنواع الكفر ضرراً.

معاني الكلمات:

(آنِفًا): قال بعض المفسرين: معناه الساعة، ومنه الاستئناف وهو الابتداء والأولى أن يقال: يقولون ماذا قال آنفا بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء، وقرئ آنِفًا وهم لغتان بمعنى واحد، وهما اسما فاعل كحاذر وحذِر إلا أنهما لم يستعمل لهما فعل مجرد بل استعمل ائتنف واستأنف بمعنى ابتدأ وقيل آنفا اسم للزمن الحاضر أو القريب منه أي الآن أو الساعة.

(هل ينظرون): نظر بمعنى انتظر أي هل ينتظرون.

(بغتة): اسم مرة من بغته بغتا فاجأه، وجاء بغتة أي فجأة، وقرئ بغَتة بفتح العين وتخفيف التاء وتشديدها كجربة وهي القطيع من حمر الوحش، والقراءة الثانية غريبة لم يرد في المصادر أختها.

(أشراطها): جمع شرَط بفتح الراء وهو العلامة والأمارة والمراد بها العلامات الدالة على قربها التي كانت موجودة إذ ذاك، ومنها مبعث النبي (ﷺ) وانشقاق القمر والدخان، وقيل ما يعمها وغيرها ككثرة المال وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام وغير ذلك من صفات ذميمة.

الإعراب:

(وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إليكَ) مَنْ موصولة مبتدأ، روعي في عائدها أولا لفظها وثانيا معناها، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا إلى الناس أو راجعا إلى أهل مكة حيث ذكرهم سابقا في قوله تعالى: **(هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ)**.

(حتى إذا): حتى ابتدائية لدخولها على الجملة، ماذا قال آنفاً: إن ركبت " ذا " مع "ما" فهي مفعول مقدم لقال، وإلا فما استفهام مبتدأ، وذا موصول خبرها وجملة " قال " صلته، والعائد محذوف أي ما الذي قاله، وآنفا إن كانت اسم فاعل فهي منصوبة على الحال من فاعل قال، وإن كانت اسماً للزمان فهي ظرف.

(والذين اهتدوا): إما مبتدأ خبره جملة "زادهم" وإما منصوب على الاشتغال.

(زادهم هدى): فاعل زاد يرجع إلى الله تعالى أو الرسول (ﷺ) أو استهزاء المنافقين.

(أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً): على قراءة " **أَن** " بفتح الهمزة فالمصدر المؤول بدل اشتمال من الساعة أي ما ينتظرون إلا الساعة إتيانها، وعلى قراءة "إن" بكسر الهمزة وجزم **(تَأْتِ)** فجوابها جملة " فأنى لهم ذكراهم ".

(فقد جاء أشراطها): الفاء تعليلية وما بعدها علة إما للقيد وهو مباغته الساعة ومفاجأتها، وإما للمقيد وهو إتيانها.

(فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم): أنى استفهام خبر مقدم وذكراهم مبتدأ مؤخر وجملة إذا جاءتهم مع جوابها المحذوف لا محل لها معترضة، ويجوز أن يكون ذكراهم فاعل جاء وهناك مبتدأ محذوف، والتقدير: فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم ذكراهم.

المعني العام:

يقول الله تعالى مخبرا عن بلادة المنافقين وقلة فهمهم الذين هم من الكفار حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله (ﷺ) ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة كابن عباس وابن مسعود وأبي الدرداء، قالوا لأولي العلم ماذا قال محمد الآن وذلك

على سبيل الاستهزاء والسخرية، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم فانعدم توجههم نحو الخير واتبعوا أهواءهم فتوجهوا إلى ما لا خير فيه.

والذين اهتدوا إلى طريق الحق زادهم الله هدى وبيَّن لهم طريق التقوى وأعانهم عليها وأعطاهم جزاءها، هؤلاء المنافقون ما ينتظرون إلا إتيان الساعة فجأة، فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة، وقد ظهرت علاماتها التي منها مبعث محمد (ﷺ) وانشقاق القمر، والدخان وكثرة المال، وشهادة الزور وقطع الأرحام.

وكان للمعاني البلاغية دور في أداء هذا المعنى، قوله تعالى: **(مَاذَا قَالَ آنِفًا)** فيها استفهام قصد به الاستهزاء لا طلب الفهم أو الاستعلام، وقوله تعالى: **(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)** أي تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده، ولمَّا كان هؤلاء بعيدين عن الحق، ومن ثم عن رضا الله وقبوله لهم جاء اسم الإشارة الذي هو للبعيد "**أولئك**" ليدل على هذه المعاني، وآثر التعبير والإخبار عنهم باسم الموصول " **الذين** " لينص في الكلام على جزائهم ومآلهم وهذا ما أفادته صلة الموصول " **طبع الله على قلوبهم** " فجزاؤهم أن ختم الله على قلوبهم فلا يعون وعظا ولا يوفقون لخير، وأيضا في قوله " **طبع الله على قلوبهم** " مجاز، لأن الطبع على الشيء في الحقيقة هو ختمه وتغطيته من أن يدخله شيء، فجاء استعماله – أي طبع – هنا مجازا على سبيل الاستعارة، حيث شبه عدم توفيق هؤلاء إلى الخير بالطبع

وهو التأثير في الشيء وختمه بجامع التأثير في كل، أو في العبارة استعارة تمثيلية، شبه فيها حال هؤلاء المنافقين وهم لا يعون ما يسمعون، ولا يستفيدون به بحال من ختم على قلبه وغطي وستر فلا يدخله شيء.

وفي قوله تعالى: **(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)** مجاز على سبيل الاستعارة المكنية، شبهت فيها أهواء هؤلاء بداعٍ يدعو، وحذف المشبه به وأشير إليه بصفة من صفاته وهي قوله: **(وَاتَّبَعُوا)** وهذا يدل على مدى تأثير الهوى في هؤلاء الناس الذين لا يعملون عقلا فيما يسمعونه.

وقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)** جاء بعد بيان أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد والمهتدي يفسر ويعيد، ولذلك عُبِّر عن هذا الفريق باسم الموصول ليصفهم بالصفة التي دلت عليها صلة الموصول وهي الهداية، ونكر لفظ "هدى" لتعظيمه لأن التوفيق والإلهام من العظيم عظيم.

وفي قوله: **(وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)** استعارة تبعية في "آتاهم" إذا كان بمعني بيَّن لهم ما يتقون أو أعانهم على التقوى، وإذا كان بمعنى أعطاهم ففي **(تَقْوَاهُمْ)** مجاز بالحذف أي جزاء تقواهم.

قال الله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ

سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا).

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

لمَّا قال تعالى: (فقد جاء أشراطها) قال: " فاعلم أنه لا إله إلا الله يأتي بالساعة، وقيل نشأ سؤال من الآية السابقة وهو متى أشراط الساعة ؟ فقيل جوابا عن هذا: فاعلم أنه لا إله إلا الله، ولا تشغل نفسك به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدا للقائها، ويناسبه قوله تعالى:**(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)**.

معاني الكلمات:

(يعلم متقلبكم ومثواكم): متقلب ومثوى مصدران ميميان من تقَّلبَ وثَوَى بمعنى أقام صالحان للزمان والمكان والحدث، والمعنى يعلم تقلبكم وإقامتكم وزمانهما ومكانهما، واختلف في المراد منهما، أي يعلم أحوالكم وتقلبكم في معايشكم ومتاجركم، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم، أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور، أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة أو النار، والأولى حملها على العموم، فالله يعلم حال الخلائق في الدنيا وفي الآخرة، وفي الليل والنهار.

(سورة محكمة): مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال، وسميت بذلك لأن النسخ لا يرد عليها من جهة أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة، وقيل المحكمة المحدثة النزول سميت بذلك لأنها حين نزولها لا يتناولها النسخ.

(في قلوبهم مرض): نفاق وضعف في الدين وهم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام.

(الْمَغْشِيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ): الْمَغْشِيِّ: اسم مفعول من غشي عليه وهو من أصابته الغشية عند الموت وهو المحتضر.

(فأولى لهم): أفعل من الوَلْي وهو القرب، ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، وهذا وعيد لهم، وقيل فعل ماض بمعنى قاربه ما يهلكه ونزل به، وقيل اسم فعلِ ماضٍ بمعنى وَلِيَهم شر بعد شر وقيل علم جنس على الويل.

(عزم الأمر): جدّ القتال ووجب فرضه.

(إن توليتم): اختلف في معناه قيل: هو من الولاية أي توليتم أمر الأمة، وجعلتم حكاماً عليهم، ومثله قراءة وليتم بالبناء للمجهول أي جعلتم ولاة، وقراءة تُولِيتم بضم التاء والواو، أي تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم، وقيل من التولي والإعراض عن

الشيء أي أعرضتم عن كتاب الله وفارقتم أحكامه وتركتم القتال، وتقولون فيه الفساد وقطع الأرحام لأن الكفار أقاربنا[1].

(وتقطعوا أرحامكم): الأرحام جمع رحم، والرحم على وجهين عامة وخاصة، فالعامة رحم الدين، والخاصة رحم القرابة من طرف الرجل أبيه وأمه، وقطعها عدم القيام بما لها من الحقوق والواجبات، وقرئ تُقطعوا بضم التاء وتشديد الطاء من التقطيع وهو تكثير القطع، وبفتح التاء والطاء من القطع وتشديدها من التقطع.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ): أصل التدبر التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره، والمعنى أفلا يتفكرون فيه وفي مواعظه وزواجره، ولا يكون ذلك إلا مع حضور القلب وجمع الفهم وقت تلاوته.

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ): قرئ بفتح الهمزة جمع قفل وأصل القفل اليبس والصلابة، وأقفله الصوم أيبسه، فالأقفال إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوه من الإيمان، فلا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر لأن الله طبع عليها، وأم منقطعة بمعنى بل وهمزة التقرير، فقد انتقل من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر.

الإعراب:

فاعلم أنه: الفاء للفصيحة والتقدير: إذا علمت ما ذكر فاثبت على ما أنت عليه والضمير للشأن، والمصدر المؤول سد مسد مفعولي أعلم.

(١) انظر تفسير ابن كثير ص (١٧٨) ومفاتيح الغيب ج ١٤ ص (٢٨٢) وما بعدها.

(لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ): لولا للتحضيض والحث على فعل الحدث، وسورة نائب فاعل على قراءة التشديد، وفاعل على قراءة التخفيف.

(وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ): القتال مفعول به على قراءة ذكر مبنيا للفاعل، ونائب فاعل على قراءته مبنيا للمفعول.

(نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ): أي نظرًا مثل نظر المغشي عليه[1]، فنظر مفعول مطلق مبين للنوع، وعليه جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل لاسم المفعول " **الْمَغْشِيِّ** " ومن الموت جار ومجرور متعلق بالمغشي.

(فَأَوْلَى لَهُمْ): الفاء للاستئناف، وأولى إن كان وعيدا من الويل فهو مبتدأ سوغ الابتداء به قصد الدعاء، و" **لَهُمْ** " جار ومجرور في محل رفع خبر المبتدأ، وأيضا إن كان " **أَوْلَى** " علما على الويل يعرب مبتدأ، وإن كان بمعنى قاربه الهلاك فهو فعل ماض فاعله مستتر يعود على الهلاك بقرينة السياق، واللام في " **لَهُمْ** " زائدة، والضمير "هم " مفعول به لأولى أي قاربهم هو أي الهلاك، وإن كان " **أَوْلَى**" أفعل تفضيل بمعنى أحق فهو خبر مبتدأ محذوف أي العقاب أولى بهم، أي أحق بهم.

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ): كلام مستأنف، فطاعة مبتدأ سوغ الابتداء به وصف المعطوف، وخبره محذوف تقديره: خير لهم أو أمثل، وقيل: " **طَاعَةٌ**" خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا، أو الأمر المرضي لله تعالى وقيل:

(١) انظر التبيان في إعراب القرآن ص (٢٣٧).

هذه الآية مرتبطة بما قبلها، ومن ثَمَّ فطاعة خبر أولى لهم، واللام بمعنى " الباء " والمعنى فأولى بهم من النظر إليه نظر المغشي عليه من الموت طاعة وقول معروف.

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ): العامل في " إذا " محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر فاصدق.

(فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ): الفاء إما واقعة في جواب " **فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ** " وإما للاستئناف إذا كان جوابه محذوفاً والتقدير، فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا أو كرهوا ذلك.

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا): عسي فعل يدل على الترجي والإشفاق، والتاء اسمها، وخبرها **(أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)** والجملة الشرطية المحذوف جوابها المدلول عليه بجملة عسيتم معترضة، وإلحاق الضمائر لعسى لغة أهل الحجاز، وأما لغة بني تميم فالتجريد منها، ومطابقة خبرها، و" توليتم " إذا كان من الولاية فمفعوله محذوف أي أمور الناس، وإن كان من التولي فهو لازم.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ): اسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول بعده، والمشار إليه المفسدون المخاطبون في قوله " **فَهَلْ عَسَيْتُمْ** " وهم المنافقون أو غيرهم من الكفار.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ): الفاء عاطفة على محذوف تالٍ للهمزة، والتقدير: أغفلوا فلا يتدبرون، وقيل: الهمزة مقدمة من تأخير، والأصل: فألا يتدبرون، وأم منقطعة غير عاطفة.

المعني العام:

لمَّا قال تعالى: " **فقد جاء أشراطها** " وهي آنية فكأن قائلا قال متى هذا؟ فقال: **(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدا للقائها ويناسبه قوله تعالى: **(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)**، أو لمَّا ذكر الله حال المؤمنين وحال الكافرين قال ما معناه إذا علمت أن الأمر ما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله تعالى، وعلى التواضع باستغفار ذنبك وذنوب المؤمنين والمؤمنات وفي الصحيح أن رسول الله (ﷺ) قال: " يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " والله يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، أو يعلم أحوالكم، ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم، وحيث تستقرون في منازلكم ومثواكم في القبور ومن الجنة أو النار، ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم، ثم يخبر تعالى عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد فلما فرضه الله – عز وجل – وأمر به نَكَل عنه ونكص كثير من الناس وهم المنافقون، فقد كانوا يحرصون على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم: هلا أنزلت سورة في معني الجهاد، فإذا نزلت سورة محكمة وأمروا فيها بما

تمنوا وحرصوا عليه شقَّ ذلك عليهم وأحجموا عنه، وسُقِطوا في أيديهم ونظروا إليه تشخص أبصارهم جُبْنا وهَلَعًا وغيْظًا كما ينظر المحتضر الذي لا يطرف بصره، فالويل لهم.

هؤلاء كان الأولى بهم أن يقولوا أمرنا طاعة وقول معروف، وإذا جد الجدُّ وعزم الأمر فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد وواطأت قلوبهم ألسنتهم في الإيمان لكان خيراً لهم، ويجوز أن يكون المراد بالذين آمنوا المؤمنين الخُلَّص، كانوا يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين يضجرون فيما بينهم منها.

ثم أشار المولي – عز وجل – إلى فساد قولٍ قالوه، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟ فقال تعالى: **(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ)** أي هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمَّرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا، أو إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله (ﷺ) وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا ووأد البنات، هؤلاء المفسدون لعنهم الله وخذلهم ومنعهم ألطافه لإفسادهم وقطعهم الأرحام حتى صَمُّوا عن استماع الموعظة وعموا عن إبصار الحق وطريق الهدي، أفلا يتدبرون القرآن ويتصفحونه حتى يقفوا على ما فيه من

المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي، لم يتدبروا، وإذا تدبروا لم تع قلوبهم ذلك لأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر، ولو وصل إليها لوجدوا فيه زاجرا عن معصية الله ولكنهم غفلوا وأخذوا بالمتشابه فهلكوا.

وجاء هذا المعنى في نظم دقيق، وأسلوب موحٍ، وتعبير أخَّاذ، وبلاغة منقطعة النظير.

فقوله تعالى: **(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** فيه أمر لرسول الله (ﷺ) بأن يعلم بوحدانية الله وهو خير من يعلم ذلك، إذن فما معنى الأمر؟، المراد بالأمر ليس هو تحصيل الفعل لأنه حاصل، وإنما المراد الثبات والدوام عليه، أي فاثبت على ما أنت عليه، وفائدة هذه الطريقة وفضلها على قولنا: اثبت على ما أنت عليه، هي أنها تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج، وتثير الشعور والوجدان فتكون النفس أحسن تلقيًا وأكثر تمسكا بما هو كائن، ولذلك نجد هذا اللون من ألوان التعبير يستعمل في المعاني المهمة التي هي أصول في هذا الدين.

" وقد درس العلوي هذا الفن في بحث خاص، وسماه الإلهاب والتهييج وعدَّه بابا من أبواب البلاغة العالية "(١).

ويقال أيضا في قوله تعالى: **(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)** ما قيل من قبل، من أن الأمر هنا ليس المراد به تحصيل الفعل لأن النبي لا ذنب له حتى يستغفر

(١) من أسرار التعبير القرآني د/ محمد أبو موسي (٤٨).

له لأنه معصوم، وإنما المراد كناية عما يلزمه من هضم النفس والتواضع والاعتراف بالتقصير واستقصار العمل، أو لأنه (ﷺ) في رقي المقامات دائما فكل مقام بالنسبة إلى ما بعده ذنب، وهو الذي يقولون فيه "حسنات الأبرار سيئات المقربين" أو توطئة لما بعده وهو " للمؤمنين والمؤمنات "، فيكون المخاطب كل فرد من أفراد أمة سيدنا محمد (ﷺ)، وإذا كان المولى في أمره بهذه الأصول، ونهيه عن هذه المحظورات قد ساق الكلام هذا المساق في خطاب نبيه الذي اصطفاه فكيف يكون خطابه لنا في شأنها؟ إنها مظاهر الربوبية القاهرة، تتجلي في خطب البشرية في شخص سيدها محمد. (ﷺ).

وقد لمح الفخر الرازي في هذه الآية لطيفه وهي أن النبي (ﷺ) له أحوال ثلاثة، حال مع الله، وحال مع غيره، فأما مع الله فوحّده وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران من الله[1].

وقوله تعالى: **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)** يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار، ونلاحظ أن عجز الآية ارتبط بصدرها، حيث جاء العجز مفيدا تعليل الكلام السابق، ويحث عليه من حيث إنه يبيِّن أن هذا التوجيه في الأمر " اعلم... واستغفر " إذا كان صادرا ممن يعلم

(١) مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٢٨٠.

حال الخلائق في الدنيا والآخرة وفي الليل والنهار فإنه حري أن يوحّد ويعبد، وألا يعصي وأن يستغفر إن عصي.

ويلاحظ في نفس الآية أنه كرر اللام في " والمؤمنين " مع أنه عطف على الظاهر الذي لا تجب فيه الإعادة، للتنبيه على اختلاف متعلقيه جنساً، وحذف المضاف من الثاني ولم يقل " ولذنوب المؤمنين " للإشعار بعراقتهم في الذنب وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

وفي قوله تعالى: **(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ)**

جاء لفظ " **مُّحْكَمَةٌ** " ليفيد أنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه، أو يقولوا هذه آية قد نسخت فلا نقاتل، لأن معنى " محكمة" سورة لم تنسخ، أو سورة فيها ألفاظ أريدت حقائقها ويقابل "المحكم" المتشابه مثل **(الرحمن على العرش استوى)** و" **يد الله فوق أيديهم** ".

وقوله تعالى: " **يَنظُرُونَ إِلَيكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ** " تشبيه بليغ مجمل، حيث شبه نظر المنافقين إليه (ﷺ) بعد نزول آية الجهاد وإشخاص بصرهم إليه جُبناً وهَلَعًا وشدة عداوة وخشية من الفضيحة، شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره من الخشية عند الموت بجامع الحيرة وعدم القدرة على رد ما نزل، وكان مجملاً لحذف الوجه، وبليغاً لحذف الأداة وقوله تعالى: **(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ)** أسند فيه العزم – وهو

الجِدُّ في الأمر – للأمر وهو لأصحابه على سبيل المجاز العقلي، والمعنى: فإذا عزم صاحب الأمر، وفي قوله تعالى: **(فَهَلْ عَسَيْتُمْ)** التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع، والاستفهام للتقرير المؤكد، فإنه لو قال على سبيل الإخبار " **عسيتم إن توليتم** " لكان للمخاطب أن ينكره، فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تستطيع الإجابة إلا بـــ " لا " أو " نعم " فهو مقرر عندك وعندي.

وصح الاستفهام من الله هنا لأن المعنى: هل يتوقع منكم الإفساد وقطع الأرحام إن توليتم أمور الناس وصرتم حكاما عليهم مع أنه – جل وعلا – عالم بما كان وما يكون لأنه ليس استفهاما حقيقيا، والتوقع في مثله ليس من المتكلم وإنما هو منظور فيه إلى الخلق على معنى إنكم أيها المخاطبون المفسدون أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف مرض قلوبكم وضعفكم في الدين وحرصكم على الدنيا يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن تأمّرتم على الناس أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تهالكا على الدنيا وتناحراً على الملك، أو إن أعرضتم عن الدين أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتناهب وقطع الأرحام.

وفي قوله تعالى: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ)** التفات من الخطاب إلى الغيبة للإشارة إلى أن ذكر جرائمهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، كما أن اسم الإشارة " **أُولَئِكَ** " جاء للبعيد ليدل على أنهم لا يستحقون القرب من الله فهم مطرودون من رحمته.

وفي قوله تعالى: **(فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)** نظم دقيق، حيث قال تعالى " **فأصَمَّهُم** " ولم يقل: أصم آذانهم، وقال " **وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** " ولم يقل أعماهم وذلك لأن العمي يكون في البصر والبصيرة، فإذا ذكر لم يغن عن ذكر البصر، وأما الصمم فلا يكون إلا في الأذن فذكره يغني عن ذكرها وقيل: لأن العين آلة الإبصار ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابتها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال: " **أَصَمَّهُمْ** " من غير الأذن.

وقوله تعالى: **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** قيل[1]: إن المراد منه الناس، وقيل: إن هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة " **أولئك الذين لعنهم الله... الخ** " فإنه تعالى قال **(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ)** أي أبعدهم عنه أو عن الصدق، أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة " **فأصمهم** " لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام، فإذن هم بين أمرين، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه، لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف، وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة تقديره **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)** لكونهم ملعونين ومبعدين، أم على قلوبهم أقفال فيتدبرون ولا يفهمون، وعلى هذا لا يحتاج أن نقول (أم) بمعنى (بل) بل

(١) نفسه ص (٢٨٥).

هي على حقيقتها للاستفهام واقعة وسط الكلام، والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر، وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام وجاء قوله تعالى: **(عَلَى قُلُوبٍ)** على التنكير قال الزمخشري يحتمل وجهين(١).

أحدهما: أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال: أم على قلوب قاسية أو مظلمة.

الثاني: أن يكون للتبعيض كأنه قال: أم على بعض القلوب لأن النكرة لا تعم، تقول جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل.

فالتنكير هنا لتهويل حال تلك القلوب وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، أو لأن المراد قلوب بعضهم وهم المنافقون، وأضاف الأقفال إليها فقال تعالى: **(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها، مناسبة لها، فهي أقفال الكفر والعناد.

– ولنعد إلى قوله تعالى: **(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ... الخ)** لأسجل ما وجدته في خاطري تجاه هذه الآية، وهو أن الأمر بالاستغفار من الذنوب وتركها داخل في الأمر بالعلم أن الله واحد، فلا إله غيره، لأن مَنْ يعلم أن الله واحد، ويقر بهذه الوحدانية لا يليق به أن يذنب، وإن أذنب عاد من توه فاستغفر وأناب، لأنه لا يكون عبدا لشهوته، بل يخلص العبودية لمن أقر بوحدانيته، ومن ثم أرى أن عطف قوله " **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ...** الخ " على قوله: " **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** " من قبيل

(١) الكشاف جـ ٤ ص (١٠) وما بعدها.

عطف الخاص على العام لأن الأمر بالوحدانية داخل فيه ضمنا الأمر بالاستغفار وترك المعاصي وهذا العطف يفيد الاهتمام بها مرتين، مرة ضمنياً عن طريق العموم، ومرة صراحة عن طريق التفصيل، وذلك لخطورة الذنوب والمخالفة لشرع الله ومنهجه، ولن تفلح أمة خالفت منهج ربها الذي أقرت له بالوحدانية.

قال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَكُم).

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الكفار أصحاب القلوب المريضة، وما يفعلونه إن تولوا عن دين رسول الله (ﷺ) وسنته من فساد في الأرض وقطع للأرحام كما كانوا عليه في الجاهلية، ثم بيَّنت الآيات أن

هؤلاء المفسدين لعنهم الله وخذلهم ومنعهم رحمته لإفسادهم في الأرض، وقطعهم الأرحام.. إلى آخر ما ذكر هناك، وهنا في هذه الآيات بيان لسبب ذلك وهو كون الشيطان سهَّل لهم ركوب العظائم، وأغواهم وزين لهم خطاياهم.

وقيل في سبب نزول هذه الآيات إنها نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم، وقيل هم المنافقون الذين وصفوا فيما سبق بمرض القلوب وغيره، وقيل أهل الكتاب الذين تبيّن لهم الحق في التوراة بنعت سيدنا محمد (ﷺ) وبعثه وارتدوا، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع النبي(ﷺ) وكانوا يعلمون أنه الحق.

معاني الكلمات:

(ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم): ارتدوا رجعوا، وعلى بمعني إلى، والأدبار جمع دبر والمراد جهة الخلف، والمعنى: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا بما سلف من مرض القلوب، وقيل اليهود كفروا بالرسول (ﷺ) من بعد ما تبين لهم نعته في التوارة، وقيل أهل الكتابين جميعاً.

(سَوَّلَ لَهُمْ): سهّل لهم ركوب العظائم وأغواهم وزيّن لهم خطاياهم، مأخوذ من السوَل بفتح السين والواو وهو الاسترخاء لعدِّه سهلًا هينًا حتى لا يبالى به، وقيل سوَّل لهم حملهم على الشهوات من السوْل وهو التمني.

(وَأَمْلَى لَهُمْ): أي غرَّهم وخدعهم مأخوذ من الإملاء وهو الإبقاء مَلاوة مدة العيش من الدهر، والمعني: وعدهم بالبقاء الطويل فقالوا نعيش أياما ثم نؤمن به، هذا إذا كان الضمير في "**أَمْلَى** " عائدا على الشيطان، فإن عاد على الله – عز وجل – فالمعنى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا): قال بعض المفسرين " ذلك " إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم " قالوا للذين كرهوا "، وقال بعضهم ذلك إشارة إلى التسويل، ويحتمل أن يقال ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا: "سنطيعكم "، والقائلون هم اليهود، والكارهون المنافقون، وقيل العكس وقيل إنه قول المنافقين لقريظة والنضير (لئن أخرجتم لنخرجن معكم).

(سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ): هو أنهم قالوا: نوافقكم على أن محمدًا ليس بمرسل وإنما هو كاذب، أو التكذيب بـــ " لا إله إلا الله " أو ترك القتال معه، وقيل هو قول المنافقين أو اليهود للمشركين سنطيعكم في التضافر على عداوة رسول الله (ﷺ) والقعود عن الجهاد معه، وذلك بعض ما تأمرون به أو بعض الأمر الذي يهمكم.

(يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ): بكسر الهمزة على أنه مصدر أي يعلم إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو كل قبيح، وقرئ بفتح الهمزة جمع سِرّ، أي يعلم الأشياء التي يخفونها ويسرونها ومنها ما أظهره الله وفضحهم به.

(مَا أَسْخَطَ اللَّهَ): أي جعل الله ساخطا عليهم وهو كتمان نعت رسول الله (ﷺ) والكفر وعصيان الأمر.

(كَرِهُوا رِضْوَانَهُ): وهو الإيمان برسول الله (ﷺ).

(أَضْغَانَهُمْ): أحقادهم: جمع ضغينة أو ضغن، والوصف ضَغِن كحذر، يقال: ضَغِنَ صدره ضغْنًا من باب تعب وحقد، والاسم ضِغْن والوصف ضَغِن كحَذِر وضاغن[1]، وإخراج الأضغان إبرازها لرسول الله (ﷺ) وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم، وكانت صدورهم تغلي حنقا عليهم.

(وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ): أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف، والمعني: ولو نشاء لعرفناكهم ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليكم.

بِسِيمَاهُمْ: السُّومة بالضم والسيمة والسيماء والسيمياء العلامة، وهو أن يسمهم الله بعلامة يعرفون بها.

(لَحْنِ الْقَوْلِ): أسلوبه، أو إمالته إلى جهة، يقال لحن له، قال له قولا يفهمه عنه، ويخفى على غيره، ولحن إليه مال، وألحنه القول أفهمه إياه[2]، ولذلك يقال للمخطئ لاحن، لأنه مال بكلامه عن الصواب، والمعنى: إنك يا محمد لتعرفن المنافقين فيما يَعْرِضُون له من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به.

---

(١) لسان العرب مادة " ضغن ".

(٢) نفسه مادة " لحن ".

(ولنبلونكم): أي لنأمرنكم بما لا يكون متعينا للوقوع، بل بما يحتمل الوقوع، ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر.

(ونبلو أخباركم): نظهرها.

(وشاقوا الرسول): صاروا في شِقٍّ غير شِقِّه، أو نازعوه من الشقاق والمعنى عادوه.

(وسيحبط أعمالهم): المراد بأعمالهم ما عملوه في دينهم يرجون به الثواب، أو أن المراد بالأعمال هنا مكايدهم في القتال، وإحباطها وبطلانها وعدم وصولهم منها إلى أغراضهم، والمراد بالضمير " هم " المنافقون وقيل رؤساء قريش والمطعمون يوم بدر.

الإعراب:

قوله تعالى: **(من بعد ما تبيّن)** ما مصدرية، والمصدر مضاف إلى الظرف والجار والمجرور متعلق بارتدوا.

(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ): الشيطان مبتدأ، وسول لهم خبره والجملة خبر" **إن الذين ارتدوا** "[1]، وقرئ " **سُوِّلَ** " مبنيا للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على مضاف محذوف والأصل كيد الشيطان سول لهم، ويجوز أن يكون الأصل الشيطان سول كيده لهم فحذف المضاف فانفصل الضمير واستتر.

(١) التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص (٢٣٧).

(وَأَمْلَى لَهُمْ): معطوف على الخبر، ويجوز أن يكون الفاعل ضميرا اسم الله عز وجل فيكون مستأنفاً، ويقرأ " **أَمْلَى** " على ما لم يسم فاعله وفيه وجهان: أحدهما قائم مقام الفاعل " **لَهُمْ** " والثاني ضمير الشيطان.

وأما على قراءته مضارعا فالجملة إما مستأنفة، وإما حال بتقدير مبتدأ والأصل: وأنا أملي لهم.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا): اسم الإشارة مبتدأ خبره الجار والمجرور بعده، والمشار إليه ارتدادهم.

(فَكَيْفَ إِذَا): الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل في إذا كأنه قيل يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم، وقرئ توفاهم، وهو إما ماض وذكر الفعل لأن الفاعل جمع تكسير، وإما مضارع حذف منه إحدى التاءين.

(يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ): الجملة حال من الملائكة أو من المفعول.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا): إعرابه كسابقه **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا)** والمشار إليه التوفي الموصوف، وما اسم موصول مفعول عائده فاعل أسخط.

(أم حسب... الخ): أم منقطعة، وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف، و" أن لن يخرج الله أضغانهم " خبر، وأن وصلتها سادة مسد مفعولي حسب.

(لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم): اللام واقعة في جواب لو، والإراءة هنا من التعريف مفعولها الأول الكاف، والثاني الهاء، والفاء عاطفة واللام مؤكدة للام الأولي.

(وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ): اللام واقعة في جواب قسم محذوف والجملة جواب القسم وفي سببية متعلقة بتعرف.

" **حتى تعلم** ": حتى بمعنى كي والفعل منصوب بأن المضمرة بعدها.

ونبلو أخباركم: قرئ بفتح الواو معطوفا على نعلم، وبسكونها على أن الجملة خبر مبتدأ محذوف أي ونحن نبلو والجملة حالية، ويجوز أن يكون قد سكن للتخفيف.

" **لن يضروا الله شيئا** ": شيئا إما مفعول به إن كان المعنى شيئا من الأشياء أو مفعول مطلق إن كان المعنى شيئا من الضرر.

المعني العام:

إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر من بعد ما تبيّن لهم الهدى وظهرت لهم الدلائل وسمعوا بها، وقعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن، الشيطان زيَّن لهم ذلك وحسَّنه وغرهم وخدعهم بما مد لهم في الآمال والأماني، ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا للمشركين الذين كرهوا ما نزَّل الله من القرآن سنطيعكم في بعض الأمر وهو مخالفة النبي (ﷺ) والتظاهر على عداوته والقعود عن الجهاد معه.

قالوا ذلك سرا فأخبر الله به نبيه لأن الله يعلم أسرارهم لا تخفى عليه خافية، فكيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، فكيف حالهم وقتئذ وهم الذين كانوا يجبنون عن القتال اتقاء ضربها، ذلك التوفي العنيف الهائل من الملائكة لهم بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من الكفر والمعاصي وكرهوا رضوانه، وما يرضاه من الإيمان والطاعات فأحبط الله لذلك أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات.

أيعتقد المنافقون واليهود الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتي يفهمهم ذووا البصائر، ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا بعلامات نسِمُهم بها تدل عليهم، وقد وقع ذلك في بعض الغزوات لتسعة من المنافقين قاموا وقد كتب على جبهة كل واحد منهم هذا منافق، ولكن الله لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه وردًّا للسرائر إلى عالمها[1]، ولتعرفنهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم كقولهم: راعنا وكقولهم: مالنا إن أطعنا من الثواب، وهكذا من كل كلام يدل على مقصد قائله وينم عن عقيدته، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): " ما أسر أحد سريرته إلا أبداها الله على

(١)- تفسير ابن كثير ص (١٨٠).

صفحات وجهه وفلتات لسانه، وفي الحديث: " ما أسر أحد سريرته إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ".

وهو سبحانه يجازي الجميع، ثم قال تعالى لأهل الإيمان ولنبلوكم أيها المؤمنون بالقتال والجهاد ونعاملكم معاملة المختبر حتى نميز المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم فيعرف الصادق منكم من الكاذب، إن الذين كفروا وجحدوا توحيد الله وصدوا الناس عن دينه وعادوا الرسول من بعد ما تبين لهم أنه نبي، وخالفوه وحاربوه لن يضروا الله شيئا من الضرر وسيحبط الله أعمالهم التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب، والتي عملوها لكيد الرسول ومشاقته سيحبطها جميعا ويذهبها فلا يصلون منها إلى أغراضهم ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

وجاء هذا المعنى في أسلوب راقٍ، وصياغة حسنة دلت على المراد دلالة وافية بليغة، وهذا ما نعرفه من خلال العرض لأسرار بلاغية اشتملت عليها الآيات.

فقوله تعالى: **(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ)** فيه مجاز عقلي أسند فيه التسويل والإملاء إلى الشيطان مع أن الأفعال كلها لله تعالى، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، وذلك لأن الشيطان سبب في هذين الفعلين والله قدَّر ذلك على يديه ولسانه، بعد علمه – سبحانه – باختيارهم، لأن الله لا يرضى لعبادة الكفر.

وجمال التعبير بالمجاز العقلي هنا يكمن في إبراز هذا السبب وهو الشيطان الذي يتربص بالإنسان.

وقوله تعالى: **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)**.

قال بعض المفسرين: " **ذَلِكَ** " إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم " **قالوا للذين كرهوا** " وقال بعضهم " **ذَلِكَ** " أشار إلى التسويل، ويحتمل أن يقال " ذلك " إشارة إلى الارتداد بسبب أنهم قالوا " **سَنُطِيعُكُمْ** "، وعلى أية حال فقد أشار إلى أي من هذه الأفعال أو جميعها باسم الإشارة الذي هو للبعيد ليدل على أنها أفعال بعيدة عن الصواب ومن ثم عن رضا الله وثوابه.

وفي قوله تعالى: " **قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا** " قال: للذين كرهوا ما نزَّل الله، مُعَرِّفا الاسم بالموصولية " **لِلَّذِينَ** " ولم يقل: للمشركين والمنافقين أو اليهود ليبين صفتهم وهي كونهم كارهين ما نزل الله.

وقوله تعالى: **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)** جملة اعتراضية مقررة لما قبلها متضمنة للوعيد وقوله تعالى: **(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)** جاء مترتبا على ما قبله، لأنه لما قال سبحانه **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)** كأنه قيل: فهب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم.

(يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) تصوير لتَوَفِّيهم على أهوال الوجوه وأفظعها، وإبراز لما يخافون منه ويجبنون عن القتال لأجله، فإن ضرب الوجوه والأدبار مما يُتَوقى في القتال والجهاد، إذن ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبه فيها حال هؤلاء المشركين والمنافقين وهم يتوفون على أبشع الصور وأفظع الوجوه وأهولها بحال من توفي وهو يضرب وجهه ودبره.

أو أن الكلام على حقيقته لما قاله ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لا يتوفى أحد على معصية الله تعالى إلا تضرب الملائكة في وجهه ودبره، ولا مانع من ذلك، وفي قوله تعالى **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)** لطيفة، وهي أن الله تعالى ذكر أمرين: ضرب الوجه وضرب الأدبار، وذكر بعدهما أمرين آخرين: اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه، ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر وذلك أنه لما كان اتباع ما أسخط الله مقتضيا للتوجه إليه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه مقتضية للإعراض ناسب ضرب الدبر.

وعبر عن سخط الله بصيغة الماضي فقال " **مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** " وعن رضوان الله بصيغة الاسم فقال " **وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** " ولم يقل " ما أرضى الله " وذلك لأن رحمة الله سابقة فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب، فقال " رضوانه" لأنه وصف ثابت سابق، ولم يقل سخط الله بل " **ما أسخط الله** " إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان.

و" **أم** " في قوله تعالى: **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)** يحتمل أن تكون متصلة أو منقطعة، فإن كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية تفهم من قوله تعالى " **والله يعلم إسرارهم** " فكأنه تعالى قال: " **أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها** "، والكل قاصر، وإنما يعلمها – سبحانه – ويظهرها، وإن كانت منقطعة لا تستدعي ذلك، وأكثر المفسرين على أنها منقطعة.

واختار فخر الدين الرازي الرأي القائل بأن " **أم** " متصلة استفهامية، مستدلاً بلغة العرب حيث تكاد أم المنقطعة لا تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء: لجاء ولا أم جاء عمرو.

وعرف المسند إليه في قوله تعالى: **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ...)** بالموصولية ليصفهم بهذه الصفة وهي كونهم في قلوبهم مرض، وفي العبارة مجاز بالاستعارة التصريحية، حيث شبه أحقاد هؤلاء المنافقين واليهود بالمرض في كون كل منهما يؤذي صاحبه، وحذف المشبه وصرح بالمشبه به، ونكره، – أي مرض – ليفيد أنه مرض غريب أو خاص، أو مهول كاد أن يقضي عليهم.

وفي قوله تعالى: " **وَلَوْ نَشَاء** " التفات من الغيبة التي كانت في قوله: " **أن لن يخرج الله أضغانهم** " إلى المتكلم في هذه الآية " **ولو نشاء** " للإيماء إلى العناية بالإراءة " **لَأَرَيْنَاكَهُمْ** "، كما أن المقام يستدعي الحضور وإظهار

الهيمنة والقهر، لأن هؤلاء المنافقين واليهود ظنوا أن ما يمكرونه برسول الله (ﷺ) يسحق الغاية منه والغرض المنشود ولا يعلم بهم أحد، فطمأن رب العباد رسوله الكريم بأنه (ﷺ) في معيته – سبحانه وتعالى – لا يغيب عنه لحظة.

وقوله " **لَأَرَيْنَاكَهُمْ** " أي لا مانع لنا، والإراء بمعني التعريف، وقوله: " **ولتعرفنهم**" لزيادة الفائدة، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة، ويقال: عرفته ولم يعرف، وفهمته ولم يفهم، فقال هاهنا " **فلعرفتهم**" يعني عرفناهم تعريفا تعرفهم به، إشارة إلى قوة التعريف.

واللام في قوله " **فَلَعَرَفْتَهُم** " هي التي تقع في جزاء " لو " كما في قوله: " **لأريناكهم** " أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمُرتَّبة على المشيئة كأنه قال: "**ولو نشاء لعرفتهم**"، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف، أي لو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده.

وأما اللام في قوله تعالى: " **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ** " جواب لقسم محذوف كأنه قال: ولتعرفنهم والله.

وقوله تعالى: " **وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** " وعد للمؤمنين وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق، فإن المنافق كان له قول بلا عمل، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به، وفيه أيضا وعيد للمنافقين وإيذان بأن المجزى عليه هو ما يقصدونه لا ما يعرضون به ويورون.

وفي قوله تعالى: **(ونبلو أخباركم)** كناية حيث ذكر الأخبار وأراد الأعمال لأن الخبر حسنه وقبيحه على حسب المخبر عنه، فإذا تميز الخبر الحسن عن الخبر القبيح فقد تميز المخبر عنه وهو العمل.

وفي قوله تعالى: **(إِنَّ الذينَ كفروا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ)**.

تأكيد للمعنى بإن، وقوله " **لن يضروا الله شيئا** " يجوز أن يكون فيه مضاف محذوف والتقدير: لن يضروا رسول الله، وفي ذلك تعظيم له (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بجعل نصرته وما يحقه كالمنسوب إليه تعالى، وفي ذك تفظيع مشاقته عليه السلام، ونكر لفظ " **شيئا** " للتقليل والتحقير، أي لا يستطيع الكافرون أن يضروا الله شيئا ولو كان قليلا أو حقيرا، وهذا يؤكد عظمة الخالق وبسط هيمنته وحمايته المطلقة لرسوله.

وقوله تعالى: **(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ)** جاء بصيغة المستقبل، فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط في المستقبل؟ فقيل المراد من قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ)** في أول السورة المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة، والمراد من الذين كفروا هاهنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمالهم قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، أو أن المراد بالأعمال هاهنا مكايدهم في القتال

وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنه.

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَآنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

لما بيَّن الله – عز وجل – حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في اتباع منهجه وسنته.

معاني الكلمات:

(وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ): يحتمل الكلام هنا وجوها: فقيل إما أن يكون المعنى دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم، وإما المراد " ولا تبطلوا أعمالكم " بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم

بتكذيب الرسول وعصيانه، أو أن يكون المراد ولا تبطلوا أعمالكم بالمنِّ بالطاعة على الرسول كأنَّ مَنْ يَمُنُّ يقول هذا فعلته لأجل قلبك ولولا رضاك به لما فعلت، وهو مناف للإخلاص، إذ لا يقبل إلا العمل الخالص.

وقيل: لا تبطلوا أعمالكم الصالحة بالكفر والنفاق، وقيل بالعُجْب والرياء، وقيل لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى، وقيل لا تبطلوا العمل الصالح بالعمل السيئ، ويرى المعتزلة وعليه صاحب الكشاف الإمام الزمخشري أن صاحب الكبيرة مخلد في النار، فقالوا معنى الآية لا تحبطوا الطاعات بالكبائر.

(فَلَا تَهِنُوا): الوهن الضعف، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره يتعدى ولا يتعدى، ووهِن بالكسر وهنا ضعف، والمعنى تضعفوا وتذلوا للأعداء.

(وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ): السَلْم بفتح السين وكسرها الصلح أي لا تدعوا الكفار إلى الصلح بمعنى لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة، ولذلك اختلف العلماء في حكمها فقيل هي ناسخة لقوله تعالى: " **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** " وقيل منسوخة بها، وقيل محكمة والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فهذه عامة والأخرى مخصوصة بقوم بأعيانهم.

(وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ): أي لن ينقصكم من وَتَرَه حَقَّه يَتِرُهُ تِرَةً إذا نَقَصَه أو من وَتَرْتَ الرَّجُلَ إذا قَتَلْتَ له قَتِيلا، وحقيقته أفردته من قريبه، مأخوذ من الوِتْر وهو الفرد وعليه الحديث من فاتته صلاة العصر فكأنما

وتر أهله وماله أي أفرد عنهما قتلا ونهباً، وعليه فالمعنى ولن يفردكم بغير ثواب.

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ): اللعب ما يشغل الإنسان وليس فيه منفعة في الحال ولا في المال، واللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة وكانت الدنيا لهوا ولعبا إما لقِصَر مدتها، وإما لأن الانشغال بها كذلك.

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ): لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة بل أمر بإخراج البعض، أو لا يسألكم إياها لنفسه وحاجته إليها بل ليرجع ثوابها إليكم، أو لا يسألكم أموالكم بل أمواله لأنه المنعم بإعطائها، أو لا يسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة.

(فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا): أي يجهدكم ويطلبه كله، لأن الإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح، وأحفى شاربه إذا استأصله.

(وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ): جمع ضِغْن وهو الحِقْد، والمعنى إن يسألكم أموالكم بتشدد تبخلوا بها ويُبرز أحقادكم على رسوله.

الإعــراب:

(وَهُمْ كُفَّارٌ فلن): الواو للحال، والجملة في محل نصب حال من الواو في " **مَاتُوا** " والفاء واقعة في الخبر لعموم المبتدأ.

(وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ): الفعل إما معطوف على " **تهنوا** " فهو مجزوم، وإما منصوب بإضمار أن، والمصدر المؤول معطوف على مصدر مقدر، والتقدير: لا يكن منكم ضعف وذل ودعاء إلى الصلح.

(وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ): الجملتان حالان، ويجوز أن تكونا مستأنفتين.

(وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ): أعمالكم إما مفعول ثان ليتركم على تضمينه معنى السلب وإما منصوب بنزع الخافض أي في أعمالكم، وقيل بدل من المفعول أي لن يترَ أعمالكم من ثوابها، والجملة معطوفة على الجملة قبلها، وقيل على الخبر وهو معكم فلا محل لها على الأول، ومحلها رفع على الثاني.

(فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا): الفاء عاطفة على الشرط، والفعل الثاني جواب الشرط.

(وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ): قرئ الفعل بالنون وفاعله يعود على الله تعالى وبالياء مضمومة وفاعله عائد إما على الله أو على البخل، وبالياء مفتوحة وفاعله أضغانكم وبالتاء مفتوحة وفاعله كذلك، والفعل معطوف على الجواب.

(هَآنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ): هؤلاء إن كان اسم إشارة فهو إما منادى حذف منه حرف النداء، وجملة " **تَدْعُون** " خبر " **أَنتُمُ** "، وإما خبر " **أَنتُمُ هَؤُلَاء** "

"**وتدعون**" مستأنفة، وإن كان " **هَؤُلَاء** " اسم موصول على رأي الكوفيين فهو خبر " **أَنتُمُ** " وجملة " **تَدْعُون** " صلة.

(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَل): مَنْ الأولى اسم موصول مبتدأ مؤخر خبره الجار والمجرور قبله، والجملة بعده صلة، ومَنْ الثانية شرطية جوابها جملة " **فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ** " وهي مبتدأ خبرها إما الشرط وإما الجواب وإما الاثنان معا.

(فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ): بَخِل بمعني ضنَّ يتعدي بـــ " على " ولما فيه من معني الإمساك يتعدي بـــ " عن " يقال بخلت وضننت عليه وعنه.

(وَإِن تَتَوَلَّوْا): الجملة الشرطية معطوفة على جملة وإن تؤمنوا.

(ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ): معطوفة على الجواب وهو يستبدل.

المعني العام:

قيل في سبب نزول الآية الأولى: إن بني أسد أسلموا وقالوا للرسول (ﷺ) قد أثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم مَنُّوا بذلك فنزلت، وقيل: إن أصحاب رسول الله (ﷺ) كانوا يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت الآية " **أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ ولَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** " فخافوا أن يبطل الذنب العمل، وروي عن ابن عمر – رضي الله عنهما– قال: كنا معشر أصحاب رسول الله (ﷺ) نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت الآية، فقلنا ما هذا الذي يبطل

أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء)** فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك(١).

فالآية ينادي فيها رب العباد الذين آمنوا لطاعته فيما أمر ونهى، وطاعة رسوله فيما بلغ عن ربه، وألا تبطلوا أعمالكم الصالحة بالأعمال السيئة، إن الذين كفروا وصدوا الناس عن الدخول في الدين الحق ثم ماتوا على ذلك لن يغفر الله لهم، وهم مخلدون في النار، وقيل نزلت هذه الآية في أهل قليب بدر.

ثم يبيِّن الله – عز وجل – أنه مبطل أعمال هؤلاء الكفار ومعاقبهم، فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة، وإذا علمتم ذلك أيها المؤمنون فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفا ولا تدعوا إلى الصلح مع العدو، وأنتم الأعلون الغالبون والله ناصركم ولن ينقصكم ثواب أعمالكم.

ثم نَفِّر الله – عز وجل – من الانشغال بالدنيا وبيَّن أنها لعب ولهو لا ثَبَاتَ لها، وأن تؤمنوا بالله وتتقوه يؤتكم ثواب إيمانكم ولا يطلب منكم إنفاق جميع أموالكم، بل يكتفي منها بجزء يسير وهو الزكاة، وإن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في تقاضيها منكم تبخلوا بها ويبرز البخل والسؤال أحقادكم على رسوله، هآنتم أيها المخاطبون يطلب منكم أن تنفقوا في سبيل الله لجهاد عدوكم، فمنكم من يبخل بالنفقة المطلوبة، ومَنْ يبخل بها فإنما يعود

(١) تفسير ابن كثير ص (١٨٤).

وبال بخله على نفسه لأن بخله يؤدي إلى تغلب عدوه عليه فيجتاح جميع أمواله، ويهلكها، والله الغني وأنتم الفقراء مهما بلغت أموالكم، وإن تعرضوا عن الدين يقم مقامكم غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي والزهد عن الإيمان، واختُلِف فيهم فقيل المقصود هم الملائكة وقيل قوم من العجم، وقيل قوم من فارس، روي أن النبي (ﷺ) سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال " هذا وقومه " ثم قال: " لو كان الإيمان منوطا بالثُّريا لناله رجال من فارس "، وقيل: هم قوم من الأنصار والله أعلم.

وكان للمعاني البلاغية دور في إبراز المعني وتوضيحه

فقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)** فيه جملة النداء " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** " تتضمن عدة توكيدات، منها استعمال حرف النداء " **يَا** " الذي للبعيد، للإشارة إلى أن الذين آمنوا ينادون لأمر مهم وخطير، فلينتبهوا لتلقيه، ولولا هذا المعنى الدقيق لجئ بـــ " أي " أو الهمزة، لأن الله قريب إلى كل منادٍ، وقال ابن هشام: وقد ينادى بها – أي " **يَا** " – القريب توكيدا إلى آخر ما ذكرت في البحث سابقا من معان وتوكيدات أفاده هذا الأسلوب " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**... "[1].

والعطف في قوله **(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)** من باب عطف الخاص على العام؛ لأن طاعة الله تشمل طاعة الرسول، أو من عطف المسبب على السبب يقال: اجلس واسترح، فالاستراحة مسببة عن الجلوس،

(١) انظر البحث ص (٢٠، ٢١).

وطاعة الله تحمل على طاعة الرسول، وأيضا كرر أطيعوا في " **وأطيعوا الرسول** " كل ذلك للاهتمام بشأن طاعته ومكانته(ﷺ)، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى بعده " **ولا تبطلوا أعمالكم** " أي لا تفسدوا أعمالكم وتحبطوها بترك طاعة الرسول كإبطال أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى في سورة الحجرات " يا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ".

وانظر إلى الربط الصوتي الذي كان بتكرار الطاء والواو في الكلمات الثلاث " أطيعوا الله – أطيعوا الرسول – تبطلوا " فعدم إبطال الأعمال متوقف على طاعة الله وطاعة رسوله.

وفي قوله تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** " جاء الكلام مؤكدا بـــ " **إِنَّ** "، وقوله " **وَهُمْ كُفَّارٌ** " جملة حالية قيد أفاد أن الله لا يغفر لمن مات على الكفر، أمَّا منْ كان كافرا ثم أسلم، فالإسلام يجُبُّ ما قبله وأيضا قوله تعالى: " **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** " فيه جملتان " **وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ** " " **وَاللَّهُ مَعَكُمْ** " حالان وهما قيدان لتقرير معنى النهي عن الضعف " **فلا تهنوا** " والدعاء إلى السلم " **وتدعوا إلى السلم** " وتأكيده لوجوب الانتهاء، لأن كونهم الأعليْن والله ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوجب الذل والخضوع.

وفي قوله تعالى: " **وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** " تشبيه ضمني حيث شبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وإفراده عن أهله، فالتشبيه هنا لم تنص عليه العبارة صراحة، وإنما طوته، ففهم من سياق الكلام وفحواه وكان بمثابة الدليل والبرهان للمراد، ففي التعبير عن ترك الإثابة في مقابلته بالوتر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والمال مع أن الأعمال غير موجبة للثواب إبراز لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها.

وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن قوله تعالى: " **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** " يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة، فذلك يقتضي أن يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون.

وقوله تعالى: **(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)** فيه قصر لموصوف " **الحياة الدنيا** " على صفة " لعب ولهو " طريقه " إنما "، وقوله: **(وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم)** إعادة للوعد حيث قال سابقا " **ولن يتركم أعمالكم** "، أو في آيات أخرى مثل قوله تعالى في سورة الحديد " **أجر كريم** " وفي سورة الملك " **وأجر كبير** " وفي سورة الحجرات " **وأجر عظيم** " ومن ثم فالإضافة في قوله " **أُجُورَكُمْ** " للتعريف أي الأجر الذي وعدكم.

وقوله تعالى: " **إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** " الفاء في قوله تعالى " **فَيُحْفِكُمْ** " للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانا لشح الأنفس وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر.

فكأنه تعالى بيَّن أن الإحفاء يقع عقب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئا.

وفي قوله تعالى: " **وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** " على أن فاعل " **يُخْرِجْ** " عائد على السؤال أو البخل مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السبب، فإن الطالب وهو النبي (ﷺ) وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون فيفضي إلى القتال وتظهر به الظغائن، ولا يخفي ما للمجاز العقلي من تخييل ومبالغة في إرادة المعنى.

وقوله تعالى: **(هَآنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)**

قوله تعالى: " **هَؤُلَاء** " إما أن تكون موصولة كأنه قال: أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله، وإما أن تكون وحدها خبر " أنت " كما يقال: أنت هذا تحقيقا للشهرة والظهور أي ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ " **تُدْعَوْنَ** ".

وفي قوله تعالى: **(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ)** إيجاز بالحذف حيث حذف المقابل لعلمه وهو " ومنكم من يجود ".

ثم بين بقوله تعالى: **(وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ)** أن من يبخل فإنما يبخل بالإنفاق على نفسه، وأكد هذا المعنى بالقصر الذي أفادته " إنما " حيث قصر صفة البخل على موصوف وهو نفسه.

ثم أكد هذا التأكيد بقوله " **والله الغني** " أي غير محتاج إلى مالكم، وأتم هذا التأكيد بقوله " **وأنتم الفقراء** "، وفي تعريف الطرفين في قوله **(وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء)** قصر أكَّد المراد، وبين كلمتي " الغني والفقراء " تضاد أظهر المعني وأوضحه.

وقوله تعالى: **(وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ..)** بيان ودليل على استغنائه عن عباده، أو فيه إنذار بسوء العاقبة في حالة التولي.

وفي قوله تعالى: **(ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)** عطف بـــ " **ثُمَّ** " إما للتراخي الحقيقي أو لبعد المرتبة عما قبل.

والله أعلى وأعلم

أهم المراجع والمصادر

وهي بعد القرآن الكريم كالتالي:

١- أساس البلاغة للزمخشري – دار الكتب العلمية – بيروت – طبعة أولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨ م.

٢- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري – د/ محمد محمد أبو موسي – مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٣- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – دار إحياء الكتب العربية – عيسي البابي الحلبي بدون تاريخ.

٤- التبيان في إعراب القرآن – لأبي البقاء العكبري – المكتبة التوفيقية – ط أولى ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م.

٥- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – مكتبة الخانجي ١٩٨٤م.

٦- رصف المباني في شرح حروف المعاني – المالقي – تحقيق د/ أحمد الخراط – دار القلم – دمشق ط ثانية ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

٧- شروح التلخيص – دار السرور – بيروت – لبنان – بدون.

٨- شذور الذهب في معرفة كلام العرب – ابن هشام – تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد – بدون.

٩- شرح قطر الندي وبل الصدى – ابن هشام – تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد – دار الفكر – بدون.

١٠- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن – زكريا الأنصاري – تحقيق الشيخ محمد على الصابوني مكتبة الصابوني ط أولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

١١- الفقه على المذاب الأربعة – الجزيري – مؤسسة المختار ط أولى ٢٠٠١ م.

١٢- الفقه الواضح – د/ محمد بكر إسماعيل – دار المنار – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠ م.

١٣- الكشاف – الزمخشري – دار الفكر ط أولى ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧م.

١٤- لسان العرب – ابن منظور – طبعة دار المعارف.

١٥- مفاتيح الغيب – الفخر الرازي – دار الغد العربي – ط أولي – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

١٦- من أسرار التعبير القرآني – د/ محمد محمد أبو موسي – مكتبة وهبة ط ثانية ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

١٧- مختار الصحاح – الرازي – طبعة عيسي البابي الحلبي بدون.

١٨- المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.